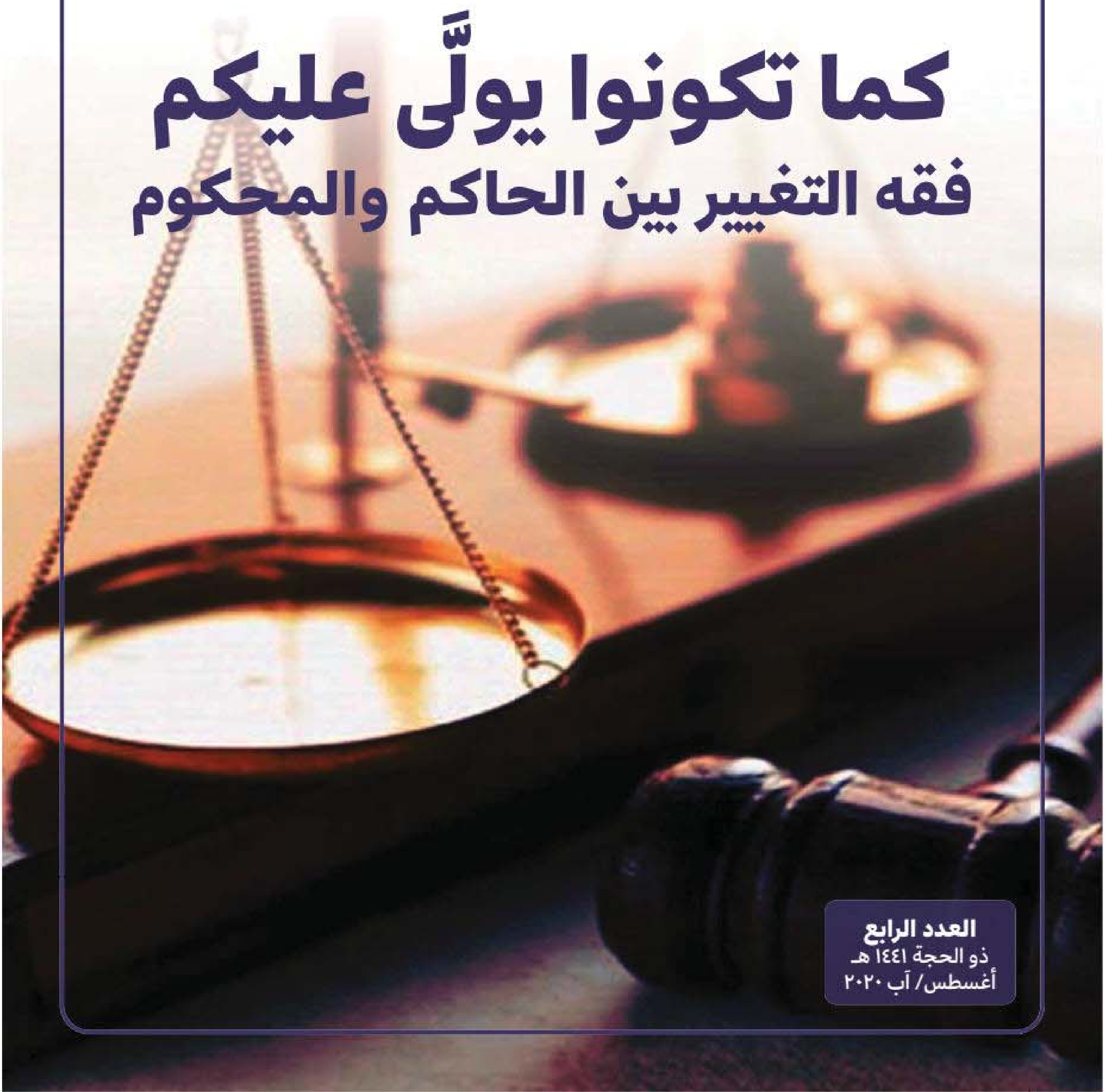
رواء

مجلة فكرية دورية
تصدر عن هيئة الشام الإسلامية

- صفحات مشرقة لعلماء الشام في وجه الاستبداد
- ضوابط الأخذ بالأيسر من الأقوال الفقهية
- أسس وملامح مشروع أهل السنة والجماعة
- تربية المشاعر

كما تكونوا يولَّى عليكم
فقه التغيير بين الحاكم والمحكوم



العدد الرابع
ذو الحجة ١٤٤١ هـ
أغسطس/ آب ٢٠٢٠

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

- **تأصيل**: مواد تتناول تأصيل المنهج، وتقعيده ووضع ضوابطه وأسسه بصورة بنائية.
- **حضارة وفكر**: مواد تتناول قضايا حضارية وفكرية.
- **دعوة**: مواد تتناول فقه وأصول الدعوة، والأساليب والوسائل والتجارب الدعوية.
- **نظرات نقدية**: لتصحيح المفاهيم والتصورات.
- **قضايا معاصرة**: مواد تتناول السياسة الشرعية ومآلات الأمور، إضافة إلى تطبيقات المصالح والمفاسد على القضايا المستجدة.
- **تزكية**: في التربية والتزكية والأخلاق.
- **قراءات**: قراءات في الكتب والرسائل العلمية ونقدها وإظهار محاسنها.

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة
وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة
ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

رَواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر مؤقتًا
كل شهرين عن
هيئة الشام الإسلامية

هيئة الشام الإسلامية

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org



كلمة التحرير

تكريم الإنسان في الإسلام

تُسيطر على كثير من الشعوب فكرة التفوّق بالجنس أو العرق أو الطبقة الاجتماعية، وأساس هذه الفكرة -كما في الديانات والفلسفات الوثنية- يرجع إلى الاعتقاد بأنّ الإله قد حلَّ أو امتزج ببعض الأشخاص، فصاروا بذلك في مقام أعلى من بقية الناس، لا يمكن لمن دونَهم أن يرتقي لمنزلتهم!

ثم تسلّلت هذه الفكرة إلى سائر الديانات المحرَّفة كاليهودية والنصرانية، فاعتقدوا بتفوق العرق الإسرائيلي ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وامتزجت النصرانية بما عندَ الشعوب الأوروبية من بقايا الوثنية، وحكمت أوروبا قرونًا طويلة تحت مظلة ثالوث: الأباطرة ورجال الدين والإقطاعيين، الذين يرون في أنفسهم تفوقًا على بقية الشعب فضلًا عن بقية شعوب العالم، وكل طبقة منها تتعامل بدُونية مع مَن هو أسفل منها. وفي كثير من المجتمعات الأخرى يرجع معيار التفوّق إلى الإرث الحضاري، أو الغنى المادي أو الانتساب إلى طبقة أو قبيلة أو بلد معيّن.

وفي المجتمعات الأوروبية المعاصرة التي نحَّت الدين عن سُدَّة الحكم مُعلنةً سيادة العقل والعلم، لم تختفِ تلك النظرة العنصرية لبقية الشعوب، فعلى الرغم من ظهور معايير التفوّق فيما بين أفرادها التي ترجع إلى الميزات التي يكتسبها الإنسان نتيجة تعلّمه أو مهنته، لكن بقي التعصُّب للعرق الأبيض (الآري – الإندوأوروبي) واعتقاد أنه متفوّق على بقية الأعراق، فدونهم الشعوب اللاتينية، والعرق الأصفر والملونون، انتهاء بالعرق الأسود.

والأثر المعنوي المترتّب على هذا كلّه: النظرةُ الدونيةُ للآخرين، واعتقادُ وَضَاعتهم، أما الأثر العمليُّ فيصل إلى الحرمان من كثير من الميزات الإنسانية بما فيها حقُّ الحياة!! بل تفضيل الحيوان على الإنسان في بعض المجتمعات.

> فكرة تفاضل البشر على أساس عنصري هي نتاجُ الابتعادِ عن المنهج الصحيح، والجهلِ بقصّة الخلق الأولى، والإنكارِ الصارخِ لمبادئ العدل والحرية وغيرها من المبادئ التي تقوم عليها الدنيا؛ إلى حدِّ الهجوم على حقيقة تكريم الإنسان

فكرة التفوّق هذه وما يترتّب عليها هي نتاجُ الابتعادِ عن المنهج الصحيح، والجهلِ بقصّة الخلق الأولى، والإنكارِ الصارخِ لمبادئ العدل والحرية وغيرها من المبادئ التي تقوم عليها الدنيا؛ إلى حدِّ

الهجوم على حقيقة تكريم الإنسان، وجعل ظُهور جنسه نتيجة لسلسلة من التطورات والتحولات بين الأجناس والأنواع، مقرِّرين أن البشر ليسوا إلا نتاج أسلاف متخلفة، وحلقةً في سلسلةٍ من التطور المستمر، فاختفت قضية السموِّ بالنفس وتزكيتها بالقيم والأخلاق والمبادئ، وزادوا بأن جعلوا البشر سُلالاتٍ يتفوّق بعضُها على بعض، ليزرعوا في عقول الناس أنَّ البشر يتفاوتون في العقول كما يتميَّز الإنسان عن غيره من المخلوقات بالعقل والتفكير.

وللإسلام كلمة أخرى..

الحقُّ في هذا كلِّه هو العودة إلى أصل الفطرة السوية التي خلقَ الله الناس عليها، والتي تقضي بأنَّ أصل البشر واحد، فهم أبناء رجلٍ واحدٍ وامرأةٍ واحدةٍ، متساوون في أصل الخلقة والتكريم، كما أكّدته الرسالاتُ السماوية وآخرها ديننا الإسلامي الحنيف، الذي رفض هذه الاعتقادات والنظرات العنصرية، وما يتفرع عنها من سلوكيات وتعاملات، وأعلن كرامة الإنسان.

مظاهر تكريم الله للإنسان:

مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان كثيرة ظاهرة، فقد خلقه تعالى بيديه الكريمتين، قال: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، وخلقه على صورة حسنة جميلة، قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، ونفخ فيه من روحه: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩].

ثم ميزه عن كثير من خلقه بالعقل والنطق: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، وبالقدرة على التمييز وحريّة الاختيار، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢].

ثم استخلفه في الأرض لعمارتها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ولأجل ذلك سخَّر له الكون وسلّطه على سائر الخلق ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، ويسر له ما يعينه في حياته من شتى أنواع المطاعم والمشارب والملابس وحمْله في البر والبحر مما لا يصحّ لغيره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

> **وضَّح الإسلام غاية التوضيح أن من كرامة الناس أنهم سواسية في أصل خلقتهم، وأن الاختلافات بينهم في الجنس أو اللغة أو اللون هو آية من آيات الله، ولا تُنقص من هذا التكريم ولا تَغض منه**

رؤية الإسلام لتكريم الإنسان:

وفي هذا السياق وضَّح الإسلام غاية التوضيح أن من كرامة الإنسان أنهم سواسية في أصل خلقتهم، وأن الاختلافات بينهم في الجنس أو اللغة أو اللون هو آية من آياته، ولا تنقص من هذا التكريم ولا تَغض منه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ)[1].

بل بيَّن أن الاختلاف بين البشر في أعمالهم وعقولهم وألوانهم وصحّتهم وحالتهم المادية هو اختبارٌ بحدِّ ذاته، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠] قال البغوي: «فالغنيُّ فتنةٌ للفقير، يقول الفقير: ما لي لم أكن مثلَه؟ والصحيح فتنةٌ للمريض، والشريف فتنةٌ للوضيع. وقال ابن عباس: أي جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى. وقيل: نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع»[2].

وأنَّ معايير التفضيل والتقديم لا تكون بناءً على هذه الاختلافات الطبيعية، بل بمقدار ما تُحقق

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٣) والترمذي (٢٩٥٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (١٩٦٤٢).
(٢) معالم التنزيل، للبغوي (٣/٣٩).

الغايةَ من خلقه ووجوده في هذا الكون، قال رسول الله ﷺ في خطبةٍ خطبها في حجّة الوداع: (يا أيها الناس، ألا إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أبَاكم واحد، ألا لا فضلَ لِعربيّ على عَجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا أحمَرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمَر، إلاَّ بالتَّقوى. أبلَّغتُ؟ قالوا: بلَّغ رسولُ الله)(١).

كما أنه لم يُحمِّل مسؤولية الشقاء في هذه الدنيا لطرفٍ دون آخَر، بل جعل الذكر والأنثى شُركاء في ذلك، كما كانا شركاء في التكليف الإلهي لهما بعدمِ الأكل من الشجرة، قال تعالى في قصة أكل آدم وحواء عليهما السلام: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١]، وقال: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦].

صور حضارية من تكريم الإسلام للإنسان:

إن تكريم الإسلام للإنسان لم يقتصر على جانب واحد من جوانب الحياة، بل شملها جميعًا، العامَّ منها والخاصّ، وعلى الأصعدة كافَّةً.

حَرَّم العصبيات والعُنصريات، قال رسول الله ﷺ: (ليسَ مِنَّا من دَعا إلى عصبيَّة، وليسَ مِنَّا من قاتَل على عصبيَّة، وليس مِنَّا من ماتَ على عصبيَّة)(٢)، وقال ﷺ: (مَن قُتِل تحت راية عِمِّيَّة، يدعو عَصَبيَّة، أو ينصر عَصَبيَّة، فَقِتلَةٌ جاهِلية)(٣)، وتاريخ المسلمين -على مرّ العصور- يشهد بنقاء صفحة الإسلام من العنصرية، فإن وُجد خللٌ في زمنٍ أو بلدٍ فهو منكرٌ لا يُمثّل الإسلام الحقّ، ولا يلبثُ أن تتوجّه إليه سهام الإنكار والتغيير من العلماء والمصلحين.

- ومن التطبيقات العملية لجعل مدار التكريم في الدنيا والآخرة -كما تقدّم- على التقوى، نجد أنّ عمّ رسول الله ﷺ وهو سيِّدٌ من سادات قريش قد أنزل الله في إهانته وبشارته بالنار سورةَ المسد، وأن رجلًا حبشيًّا أسود كان مستعبدًا في مكّة يبشّره رسول الله ﷺ بالجنّة، ويخصّه برفع الأذان، ويُصعده على ظهر الكعبة يوم الفتح أمام سادات قريش كلِّها؛ لأنّه مؤمنٌ بالله ورسوله. وعندما عيّر أحدُ كبار الصحابة بلالًا بلونه، وقال له: «يا ابن السوداء»، عاتبه النبي ﷺ وقال له: (أعَيَّرتَهُ بأمِّه؟ إنَّك امرؤٌ فيك جاهليَّة)(٤).
- وحرَّم الاعتداء عليه في بدنه أو ماله أو عرضه، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقال عز وجل: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

> **حفظ الإسلام للإنسان إنسانيته ولو لم يكن مُسلمًا، فقد رأى النبيُّ ﷺ جنازة فقام لها، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: (أليسَت نَفسًا؟) متفق عليه.**

بل إنّ تكريم الإنسان في الإسلام قد بلغ غايته في التشريعات الخاصّة بالقتال، فيحرم التمثيل بجثث المقاتلين، ويحرم قتل غير المقاتلين من الرهبان والشيوخ والأطفال والنساء، ويحرم الاعتداء على الأموال والأشجار ونحوها، فعن بُرَيدة ؓ قال: كانَ رسول الله ﷺ إذا أمَّرَ أميرًا على جيش، أو سَرِيَّة، أوصَاهُ في خاصَّتِه بتقوى الله، ومن مَعه من المسلمين خيرًا، ثم قال: (اُغزُوا باسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ، قاتلوا مَن كفرَ باللهِ، اُغزوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغدِروا، ولا تُمَثِّلوا، ولا تَقتُلوا وَليدًا)(٥).

- وحفظ للإنسان إنسانيته ولو لم يكن مُسلمًا، فقد رأى النبيُّ ﷺ جنازة فقام لها، فقيل له: إنّها جنازة يهودي، فقال: (أليسَت نَفسًا؟)(٦).
- وأعلى من شأن العدل بين النّاس والإحسان إليهم، قال جل جلاله: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء

(١) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٧٧٤).
(٢) أخرجه أبو داود (٥١٢١).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٠).
(٤) أخرجه البخاري (٣٠).
(٥) أخرجه مسلم (١٧٣١).
(٦) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣١٢) ومسلم (٩٦١).



وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

واجب الإنسان في الحفاظ على كرامته:

> **تكريم الإنسان في الإسلام بلغ غايته في التشريعات الخاصّة بالقتال، فيحرم التمثيل بجثث المقاتلين، ويحرم قتل غير المقاتلين من الرهبان والشيوخ والأطفال والنساء، ويحرم الاعتداء على الأموال والأشجار ونحوها**

أوجب الإسلامُ على الإنسان أن يحافظ على الكرامة التي منحه الله إياها في نفسه وغيره، وذلك من خلال العديد من التشريعات، والتي من أهمها:

- تحقيقُ عبودية الإنسان لله الواحد الأحد المنزّه عن النقائص والعيوب، الذي لا تربطه صلة نسبٍ ولا زواج ولا أبوة بأيٍّ من البشر، وتعظيمُه حق التعظيم بتوحيده والخضوع له والتسليم لشريعته، فهو الخالق الموجد لهذه الحياة وجميع الدلائل الصحيحة تقودُ إليه، وتنقضُ غير ذلك.
- ترقية الإنسان نفسَه بالعلم والمعرفة: وهذا يشمل المعارف التجريبية والتطبيقية والعلوم الإنسانية والدينية، بتجرُّدٍ وموضوعية ومنهج علميٍّ صحيح؛ فالعلمُ الحقيقي هو الذي يوصل الإنسان إلى معرفة خالقه والإيمان به، فيتخلّص من العبودية والخضوع لغيره، ويترقى عن ظلمات الجهل ودركات الانحرافات والخرافات التي تُلبَس لبوس النظريات والحقائق العلمية.
- تزكية النفس بالأخلاق الفاضلة، والمبادئ السامية والقيم العليا التي جاءت بها الشرائع السماوية، وتمّمها الإسلام وأكّدها وفصّلها، والتعاملُ بها في الحياة اليومية مع الخاصّة والعامّة من الناس، وفي السرِّ والعلن.
- حماية النفس والدين والعرض والعقل والمال، وعدم التفريط بشيء منها.
- التزام أحكام الشرع في العدل بين الناس، ومنع ظلمهم والاعتداء عليهم.

فإن فعلنا ذلك فكم سيتغير وجه العالم، ويختفي أكثر الخراب الذي يعلوه.



قضايا معاصرة

أسس وملامح مشروع أهل السنة والجماعة

د.عماد الدين خيتي(*)

لكل أمةٍ مشروعها الذي يبين نظرتها للحياة، ويضع الأسس والقواعد التي تقوم الدولة على أساسها، وتضبط مختلف العلاقات بين أطرافها، وعلاقاتها مع الأمم الأخرى، وللأمة الإسلامية متمثلة بأهل السنة والجماعة مشروع يمتاز بشموله لكافة مناحي الحياة، وكافة احتياجات الإنسان، ولكافة البشرية، بمصدره الرباني، وتشريعاته الفريدة، وفي هذا المقال حديث عن أسس وملامح هذا المشروع.

مدخل:

عاش المسلمون قرونًا طويلة ينعمون بشرع الله تعالى، بلادهم مصونة، حياتهم آمنة رغيدة، سيرة غالب حكامهم حسنة، علماؤهم قائمون بشرع الله يعلمون الناس دينهم ويحتسبون على الظلم والطغيان، فازدهرت حياتهم، وتقدّمت علومهم، وأصبحوا قادة الدنيا وسادتها.

وفي العصر الحديث يعيش العالم الإسلامي ضعفًا وتراجعًا على مختلف المستويات، بدأً من استلاب سيادته وقراره، إلى تنحية شرع الله عن غالب دوله ومجالات تطبيقه، وتراجع مكانته العلمية، بالإضافة للفقر والتخلف الذي تعيش فيه شعوبه ودوله، مما دفع الكثير من العاملين في الساحة الإسلامية للبحث عن مخرج من هذا الحال، فكثرت المطالبة بمشروع يُعيد للأمة الإسلامية مكانتها اللائقة بها، ولـمَّا تتبلور ملامح ذلك المشروع بعد، وهذا المقال محاولة لترسُّم الأسس العامة التي ينبغي أن يتضمنها أي مشروع للأمة؛ إسهامًا في هذا الحراك وإثراء له، أما التفصيلات العملية التنفيذية التي تختلف تفاصيلها وتطبيقاتها العملية وخياراتها من زمن لآخر، وبين مكان وآخر فلها فرسانُها وميادينُها[1].

مشروع أهل السنة والجماعة هو المشروع الإسلامي:

أهل السنة والجماعة هم أتباع الإسلام، والمتمثلون عقيدته، والعاملون بشرائعه وأحكامه، المتبعون لما

(*) باحث ومتخصص في الدراسات الإسلامية، نائب رئيس مجلس الإفتاء في المجلس الإسلامي السوري.

(١) لا يلتزم المقال بالمصطلحات العلمية التخصصية الدقيقة في المقصود بالمشروع أو الفرق بينه وبين البرنامج، وإنما على الاستخدام الشائع لكلمة المشروع.

جاء به الوحي: (ما أنا عليه وأصحابي)[(١)]؛ فهم سواد الأمة منذ القرون المفضّلة باتباعهم للوحيين وتعظيمهم لهما، وتوقير السلف الصالح، وترك الخصومة والابتداع في الدين، والحرص على الجماعة والألفة، وبمجمل معتقداتهم وعباداتهم، وتاريخهم العلمي والفكري والسياسي. وأي مشروع لا يترسم معالم منهج أهل السنة فإنه لا يكون مشروعًا صالحًا للمسلمين، فـ «لَا يُصْلِحِ آخِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا»[(٢)].

> **أهل السنة والجماعة هم أتباع الإسلام، والمتمثلون عقيدته، والعاملون بشرائعه وأحكامه، هم سواد الأمة منذ القرون المفضّلة، وأي مشروع لا يترسم معالم منهج أهل السنة فإنه لا يكون مشروعًا صالحًا للمسلمين**

أسس مشروع أهل السنة:

هناك منطلقان لهذا المشروع:

أحدهما: يتعلّق بالإسلام باعتباره الدين الشامل الذي يحكم حياة الإنسان وينظم شؤونه في جميع المجالات، من أمور العقيدة والفقه، والاقتصاد، والاجتماع، والإعلام، والسياسة، وغيرها.

والآخر يتعلّق بحملته وهم أهل السنة والجماعة، وهم بهذا التعريف يجمعهم أمران، أحدهما ديني والآخر سياسي[(٣)]:

- فالديني (أهل السنة): والمقصود به ما كان عليه ﷺ من الهَدْي والاعتقاد والعلم والعمل، أخذًا بمثل قوله ﷺ: (فعَلَيكُم بِسُنّتي وسنَّة الخُلفاء المَهديين الراشدين)[(٤)].
- والسياسي (الجماعة): والمقصود بها جماعة المسلمين، فقد سُئل ﷺ عن الناجين من الافتراق والابتداع فقال: (هم الجماعة)[(٥)]، وقال ﷺ: (وعليكُم بالجماعةِ، والعامَّة، والمسجد)[(٦)].

وعليه: يمكن لنا أن نتلمس من خلال هذين الجانبين معالم مشروع أهل السنة والجماعة، وهما جانبان متداخلان ومكملان لبعضهما البعض لا يمكن الفصل بينهما، كما يأتي:

ففي الجانب الديني:

١. تعظيم الوحي واتباعه والخضوع والانقياد له، وتربية المجتمع على ذلك عبادةً وسلوكًا.
٢. تحقيق العبودية لله تعالى في جميع مناحي الحياة ومنطلقاتها، وتحرير العقول والقلوب من الخضوع لغيره تعالى.
٣. اتّباع سلف الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين، والأخذ بالإجماع، وما كانوا عليه من هدي في العلم والعمل والسلوك، ومعرفة حقهم ومكانتهم، وعدم تسفيه آرائهم واجتهاداتهم أو الخروج عن طريقتهم.
٤. العناية بهوية الأمة: الدينية، واللغوية، والتاريخية، والدفاع عنها في مواجهة كل ما يُضعفها أو يؤثر فيها.
٥. التمسك بالأخلاق الفاضلة والدعوة إليها، وإصلاح أخلاق المجتمعات واستكمالها.
٦. محبة المسلمين وموالاتهم لأخوّتهم في الإسلام، وتحقيق ذلك عمليًا في شتى الميادين، ونصرتهم وإعانتهم، والتربية على فقه الخلاف والحوار والعمل المشترك معهم.
٧. التعاون مع عموم أهل القبلة فيما فيه خير المسلمين من أمور الدين التي يؤدونها على الوجه الصحيح، أو أمور الدنيا التي تحقق مصلحة للمسلمين.
٨. نشر العلم والمعرفة، والعناية بتربية النشء تربية سليمة تحقق الأهداف العظمى لاستخلاف الإنسان في الأرض.
٩. الدعوة إلى الله ونشر الإسلام، والتبشير به، سواء بين المسلمين أنفسهم أو بين غير المسلمين؛ فرسالة الإسلام: إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).

(٢) من كلام الإمام مالك رحمه الله، ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، (٨٨/٢)، وذكرها ابن تيمية في عدة مواضع منها: مجموع الفتاوى (٣٥٣/١)، وذكرها الشاطبي في الاعتصام بلفظ: «لن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها» (٣٤٩/١).

(٣) سبق بيان ذلك في مقال: «أهل السنة والجماعة.. المصطلح والانتماء»، والمنشور في العدد الثاني للمجلة.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وأحمد (١٧١٤٤).

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٦٣).

(٦) أخرجه أحمد (٢٢٠٢٩)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١٣٢).

وفي الجانب السياسي:

١. جمع كلمة الأمة تحت مظلة الأخوَّة الإيمانية، والحفاظ على وحدتها وجماعتها، والولاء لها، والحذر من الفرقة والفتنة بين المسلمين.

٢. العمل على تحقيق المبادئ الأساسية لتكريم الإنسان وحفظ حقوقه، وحمايته من الظلم والتعدي على إنسانيته وكرامته، ومحاربة الاستبداد بكافة صوره.

٣. إقامة الدولة التي تُقيم الدين، وتحفظ للناس حقوقهم وحياتهم، وتلبي حاجاتهم.

٤. العناية ببيان المسائل التي تتعلق بالحكم، وكيفية تولي الحاكم، وحقوقه وواجباته، والاحتساب السياسي على الحكام وكيفية التعامل مع أخطائهم وعزلهم، وتوحيد مواقف العلماء في أطرِهم على الحق ومنع الظلم، بما يحقق الأمن الداخلي للمجتمع المسلم.

٥. الدفاع عن بلاد المسلمين والحفاظ عليها من الضياع والاعتداء، ببناء القوة الرادعة التي تحفظ للمسلمين هيبتهم وتحمي أوطانهم من أطماع الأعداء، وتحرير ما وقع من أراضيهم تحت الاحتلال الغاصب، وبناء وحدة وطنية للتحصين من اختراق الأعداء.

٦. الاستقلال عن التبعية الأجنبية، فكريا، وسياسيًا، واقتصاديًا، وصناعيًا.

٧. تحقيق التنمية والازدهار في النواحي العلمية والاقتصادية والصناعية ونحوها، والعمل على تحقيق الاكتفاء الذاتي للمسلمين ودولهم.

٨. التعاون مع دول العالم وشعوبه في كل ما فيه سعادة البشرية وتقدمها، وعلى رأس ذلك إحقاق الحق ومنع الظلم، والتنمية.

ومن المشاريع العملية القائمة التي يمكن أن تنبثق من هذه الأسس:

- المؤسسات التعليمية التي يتربى فيها الطلاب ويتعلمون أمور دينهم ودنياهم، سواء التي تسير على الطريقة الحديثة في التعليم المدرسي، أو التي تعتمد التعليم المسجدي، وغيرها.
- المؤسسات العلمائية والإفتائية التي تهتم بتمثيل المرجعية، وبتوجيه وقيادة الشأن العام للمسلمين .
- مؤسسات وبرامج التعريف بالإسلام ودعوة غير المسلمين إليه، وترسيخ ثوابته والرد على الطاعنين فيه.
- مشاريع التخلص من الاستعمار وتحرير بلاد المسلمين من الهيمنة الخارجية، وما يستلزم ذلك من تأسيس تجمعات وكيانات، أو التعاون مع شخصيات وطنية وإسلامية تحقق تلك المقاصد والأهداف.
- مشاريع النهضة العلمية والفكرية والحضارية للنهوض بالأمة وإيصال رسالتها، واستكمال التخلص من الاستعمار والنهضة بالعالم الإسلامي من حال التخلف التي سقط فيها، كمؤسسات البحث العلمي، والمؤسسات الإعلامية، والجمعيات والكيانات الاجتماعية، والسياسية، ونحوها.

> **«المشاريع» التي قد يخوضها أهل السنة كثيرة ومتعددة، وقد لا تكون متشابهة ولا متقاربة، وقد تتعدد وجهات نظرهم واجتهاداتهم في اعتبار الأهم، ولا ضير في ذلك، ما دامت تنطلق من أسس المشروع العام لأهل السنة وتصبُّ في أهدافه**

مشاريع أهل السنة تكامُلٌ لا تعارُض:

من المؤكد أن أحوال البلدان تختلف من بلد لآخر، ومن زمن لآخر، فبينما يكون المشروع الأهم في بلد ما أو زمن ما حمل السلاح والجهاد لتحريره من الاحتلال أو التصدي للغزاة، قد يكون المشروع ذو الأولوية في بلدٍ آخر نشر العلم والتعليم بين المسلمين، وفي بلدٍ ثالث التصدي لأفكار المنحرفين من المنتسبين للإسلام أو من غيرهم، وهكذا.

ومن المؤكد أن الناس مختلفون في قدراتهم ومجالات إبداعهم وتميزهم، فبينما يبرز بعضهم في التعليم، يبرز بعضهم في الدعوة، وآخر في السياسة، ورابع في الاقتصاد، ونحو ذلك، وكل على خير.

ومن ثَمَّ فإنَّ «المشاريع» التي قد يخوضها أهل السنة كثيرة ومتعددة، وقد لا تكون متشابهة ولا متقاربة، وقد تتعدد وجهات نظرهم واجتهاداتهم في اعتبار الأهم، ولا ضير في ذلك، ما دامت كلها تنطلق من أسس المشروع العام لأهل السنة وتصب في أهدافه، وينبغي في ذلك مراعاة التالي:

أسس مشروع أهل السنة المتعلقة بحملته (أهل السنة والجماعة)

الجانب الديني (السنة)	الجانب السياسي (الجماعة)
تعظيم الوحي واتباعه	جمع كلمة الأمة بالأخوَّة الإيمانية
تحقيق العبودية لله	تحقيق المبادئ الأساسية لتكريم الإنسان
اتّباع سلف الأمة	إقامة دولة تُقيم الدين وتحفظ حقوق الناس
العناية بهوية الأمة	العناية بمسائل الحكم والحكام
التمسك بالأخلاق الفاضلة	الدفاع عن بلاد المسلمين وتحريرها
محبة المسلمين وموالاتهم	الاستقلال عن التبعية الأجنبية
التعاون مع عموم أهل القبلة	تحقيق التنمية والازدهار
نشر العلم والعناية بالتربية	التعاون مع العالم لإسعادة البشرية وتقدمها
الدعوة إلى الله ونشر الإسلام	

١. تكوين مرجعية علمية شرعية يرجع إليها الناس في مختلف شؤونهم ونوازلهم، تقوم بالتوجيه والقيادة حال انعدام الحاكم المقسط، وبخاصة في أوقات الشدة والمحن[١]، وقد شهد العالم الإسلامي في العصر الحديث العديد من الأمثلة لدور العلماء في هذا المجال إبان فترة الاستعمار، وما تلاها من فترات حكم غير رشيدة، ومن أهم خصائص هذه المرجعية التي يمكن أن تُذكر في هذا المقام: ألا تكون فردية، وأن تكون جامعة لأهل السنة بمعناهم الواسع العام، وأن تبقى في الشأن العام الكلي المتفق عليه دون النزول إلى الفرعيات والتفاصيل التي هي محل الاجتهاد والاختلاف.

قد لا يكون الوصول إلى هذه القيادة أو المرجعية لعموم أهل السنة يسيرًا أو مباشرًا في ظل الأوضاع الحالية، لكن وضوح الرؤية، وتجزئة العمل إلى مراحل أو مشاريع صغيرة متكاملة، مع التنسيق والتكامل يسهم في تأدية الغرض المنشود، وبخاصة في توزع الأعمال، وتوجيه العاملين مؤسسات وأفرادًا نحو الواجبات الكفائية المضيَّعة والمستجدة، ومنع الهدر الناشئ من التكرار، فضلًا عن التضارب والتعارض.

٢. أن ينصب الاهتمام والعمل على المشاريع الأكثر أهمية وتأثيرًا في الأمة، ويعرف ذلك من حال الناس، وما نزل بهم، وما يحتاجون إليه، من شؤونهم الملحة، حسب المعروف عند أهل العلم من فقه الأولويات، قال العز بن عبد السلام: «واعلمْ أنّ تقديمَ الأصلحِ فالأصلحِ، ودرءَ الأفسدِ فالأفسدِ مَرْكُوزٌ في طبائعِ العبادِ نظرًا لهم مِن ربِّ الأربابِ... لا يُقَدِّمُ الصالحَ على الأصلحِ إلا جاهلٌ بفضلِ الأصلحِ، أو شقيٌّ مُتَجاهلٌ لَا يَنظُرُ إلى ما بين المرتبتَين مِن التفاوت»[٢].

(١) فأهل العلم هم من أمر الله تعالى بالرجوع إليهم في المدلهمات والخطوب، كقول تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩]، وهم أولى من يدخل في قوله تعالى عن ولاة الأمر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: ٥٩] في الأحوال الطبيعية، فضلا عن الأحوال الأخرى. وعلى الرغم من قيام المؤسسات الشرعية الرسمية في العديد من الدول بجانب من بيان الأحكام الشرعية، إلا أن مهامها وطبيعة تبعيتها للدول تقف بها وتضعف عن الخوض في الكثير من المهام، هذا إن لم تكن أداة من أدوات الحاكم التي يحارب بها الدين ويشرع الطغيان. وهنا نقطة أخرى تحتاج لبحث مستقل: أن هذه المؤسسات الرسمية ليست سواسية في مواقفها، ونتاجها العلمي، وبالتالي لا ينبغي أن يكون الموقف منها كذلك.

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام ص (٧) باختصار. ومما يُنقل عن العز قوله رحمه الله: «من نزل بأرض تفشى فيها الزنى فحدث الناس عن حرمة الربا فقد خان». وينظر دراسة الشيخ يوسف القرضاوي عن فقه الأولويات في ضوء الكتاب والسنة.

٣. أن تكون الثقة بين العاملين سيدة الموقف، وألا يطعن بعضهم في مشروع بعض، أو يعمل على إضعافه حتى لو كان مشروعه في مرتبة أدنى، فمن لم يحمل السلاح للدفاع عن المسلمين وحرماتهم لا يجوز له أن يرمي المجاهدين بالغلو والتطرف وعدم الحكمة، ومن حمل السلاح لا يجوز له أن يرمي المشتغلين بالتعليم أو غيرها بالركون إلى الظالمين، ونحو ذلك ما دام الجميع يعمل في ساحة الاجتهاد وفق الضوابط الشرعية، مع التزام الجميع عدم الإضرار بالآخرين بأي طريقة من الطرق المباشرة وغير المباشرة.

٤. التخصص في العمل، فكون الإسلام شاملًا في نظرته وتناوله لجميع جوانب الحياة لا يعني أن يعمل كل من يسعى للعمل الإسلامي في كل الجوانب الشرعية، والدعوية، والسياسية وغيرها، خاصة مع توسع الحياة وتعقدها، فبالتخصص يستطيع الشخص أن يخدم في المجال الذي يبدع فيه، ويفسح المجال لأخيه ليبدع في مجاله فيثريه، وهكذا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

كما أن في توزيع العمل فوائد أخرى لا تقل أهمية عما سبق: من حماية العمل من الزوال أو التراجع في حال التعرض لمخاطر وجودية، أو صعوبات مالية، أو بشرية[١].

> **من أهم واجبات الوقت التي لا يجوز التأخُّر فيها ولا التغافل عنها: تكامل المشاريع والجهود بين العاملين؛ وبمجموع تلك الجهود يتحقق المشروع العام لأهل السنة، والغفلة عنه تؤدي للصراع، وتبديد الجهود، وضياع المنجزات**

٥. أن يتكامل مع إخوانه في الجوانب التي لا يعمل فيها، بحيث تتعاضد هذه المشاريع وتؤتي ثمارها لصالح المسلمين. والابتعاد عن المنافسة والمزاحمة والمضايقة، فميادين العمل كثيرة وافرة، فالواجب أن ينفر كلٌّ إلى ما يجيده ويحسن فيه، قال السعدي عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢]: «وفي هذه الآية أيضا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور»[٢].

ومن أهم واجبات الوقت التي لا يجوز التأخُّر فيها ولا التغافل عنها: تكامل المشاريع والجهود بين العاملين؛ وبمجموع تلك الجهود يتحقق المشروع العام لأهل السنة، والغفلة عنه تؤدي للصراع، وتبديد الجهود، وضياع المنجزات.

دعوى غياب مشروع أهل السنة في العصر الحالي:

يُطلق العديد ممن يتحدث عن مشروع أهل السنة مقولة «إن مشروع أهل السنة غائب أو غير موجود»، وهذا غير دقيق، وبيانه من وجوه:

الوجه الأول: أن مطلِق هذا الكلام غالبًا ما يقصد المشروع السياسي في الوصول للحكم في بلاد معينة وإدارتها، وهذا تقزيم لمشروع أهل السنة، وإهدار لما بُني من مشاريع أخرى ضخمة، بذلت فيها الجهود حتى آتت ثمارها، وقد لا يتيسر إقامة تلك البرامج السياسية المنشودة في بلد ما أو وقت ما لتقدير القائمين على الأمر بغياب المصلحة الراجحة للمسلمين، فهل تهدر مشاريعهم الأخرى لأجل ذلك؟

والواقع والتاريخ يقول: إنه قد قامت في بلاد المسلمين عشرات مشاريع تحرير البلاد والعباد من الاستعمار والتبعية للمحتل، والمشاريع العلمية،

(١) في هذا التخصص فوائد شرعية وتربوية وسلوكية أخرى غير ما سبق، من أهمها: تقبُّل وجود قيادات أخرى تقاسمها التأثير في الجماهير والقيادة، وعدم احتكار الحق والوصاية على الخلق، والتدرب على التعامل مع مختلف الاجتهادات والآراء، وتحقيق الأخوة الإسلامية عمليًا.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (٣٥٥/١).

والتعليمية، والاجتماعية، والصناعية، وغيرها وهي مستمرة بحمد الله منذ عقود طويلة، وقد حققت نتائج ملموسة لا تنكر، ونفع الله بها خلقًا عظميًا، وأسهمت في تنشئة أجيال كثيرة شاركت في استكمال تحرير البلاد، ومقاومة أمواج الفساد والإفساد، وبذلت في ذلك المهج والأرواح، والثروات الضخمة.

> **قامت في بلاد المسلمين عشرات مشاريع التحرير من التبعية للمحتل، والمشاريع العلمية، والتعليمية، والاجتماعية، والصناعية، وغيرها، وقد حققت نتائج ملموسة، ونفع الله بها، وأسهمت في تنشئة أجيال شاركت في استكمال تحرير البلاد، ومقاومة الفساد والإفساد، وبذلت في ذلك المهج والأرواح، والثروات**

الوجه الثاني: أن البلاد الإسلامية وإن كانت غير خاضعة للمحتل الأجنبي مباشرة إلا أن غالبها يخضع لأنظمة حكم متسلطة لا تستمد قوتها من الشعوب، وتحاول فرض مشاريع غريبة عن هوية الأمة وثقافتها وهمومها، وهي مشاريع علمانية (بشقيها الليبرالي والاشتراكي)، لا تهدف لتحقيق الخير للبلاد والعباد، وتستمد القوة من المحتل لفرضها في بلاد المسلمين بالقوة والإكراه، وعملت على تغييب وقمع جميع مشاريع أهل السنة، ومحاربة القائمين عليها ومطاردتهم واجتثاثهم، مما أدى إلى ضعف تلك المشاريع أو غيابها عن بعض الساحات بسبب تلك الحرب، على الرغم مما أنجزته الشعوب من قدرة كبيرة على مواجهة مشاريع الاستعمار والاختطاف تلكَ، والتي تُوجت بموجات الربيع العربي التحررية.

فغياب مشاريع أهل السنة أو تراجعها أو ضعفها في عدد من البلدان، لم يكن بسبب ضعف في المشروع، أو غيابه، أو تهاون القائمين عليه، بل بسبب الحرب الشاملة التي تُقام ضدها وضد القائمين عليه، والتي بُذلت في صدها التضحيات الكبيرة، ولم تكن «المنافسة» بين مشاريع أهل السنة والمشاريع التغريبية عادلة أو متاحة كما يصوره المدعون.

والنتيجة: أن جهود أهل السنة كانت سببًا مباشرًا في تعثر أكثر تلك المشاريع التغريبية التخريبية، وفشل الكثير منها، أو ضعف تأثيرها، وبيان حقيقتها، على الرغم من الدعم الهائل الذي يقف خلفها.

فعلى سبيل المثال: بعد الغزو العسكري الاستعماري لإفريقيا في القرنين التاسع عشر والعشرين اتجه الغربيون للغزو الفكري والثقافي والإعلامي، وأصبح الفاتيكان يعتمد على الغزو العسكري والفكري ليمهد له الطريق أولًا، ثم تدخل الكنائس لتجد الجوَّ مُهيئًا لها للعمل وسط الفقراء؛ ولذا نظم «بابا الفاتيكان جون بول الثاني» زيارة لإفريقيا في مايو ١٩٨٠م من زائير (الكونغو الديمقراطية حاليًا) والكونغو ثم كينيا وغانا وبوركينا فاسو وساحل العاج قائلًا: «إنني أرجو أن يكون بحلول عام ٢٠٠٠م قد تنصّرت إفريقيا جميعها»[(١)]، لكن ذلك لم ينجح بسبب الجهود الدعوية المباركة التي جابت أقطار القارة السمراء، وثبّتت المسلمين على دينهم، بل أدخلت الملايين من غيرهم في الإسلام.

> **غياب مشاريع أهل السنة أو تراجعها أو ضعفها لم يكن بسبب ضعف في المشروع، أو غيابه، أو تهاون القائمين عليه، بل بسبب الحرب الشاملة التي تُقام ضده وضد القائمين عليه، والتي بُذلت في صدها التضحيات الكبيرة**

الوجه الثالث: وقع عدد من العاملين في المشروع الإسلامي في بعض الأخطاء، وحصلت بينهم فرقة؛ لأسباب عديدة، من أهمها: الظروف الصعبة الضاغطة التي يعيشها العالم الإسلامي، وقد أدى هذا إلى تأخير القيام ببعض الواجبات كتوعية الشعوب والشراكة مع المجتمع، أو ضعفها.

ومع امتلاك الشعوب لزمام المبادرة في ظل الثورات الحالية وتقدمها الصفوف، وشيوع أجواء جديدة من الحرية وتجدد الأمل، وتغير الظروف، وتيسر بلاد ومنابر جديدة للعمل، تحتاج النخب لمراجعات حقيقية، ووقفات صادقة تميط اللثام عن هذه الأخطاء، وتضع الحلول المناسبة لها، بتجرد وموضوعية.

(١) من مقالة بعنوان: تعرف على خريطة التنصير في إفريقيا، على موقع تبيان www.tipyan.com.



المشروع الحضاري لأهل السنة:

المسلمون أصحاب مشروع حضاري عالمي، قام على أسس راسخة ثابتة مستقرة لا يعتريها تغير ولا تبدل أو تحول، تشمل حاجات الحياة كلها من مختلف جوانبها الفكرية والروحية والنفسية والجسدية والمادية الفردية والاجتماعية، وفي جميع المجالات العلمية والعملية، وتعترف بحضارات الشعوب ومنجزاتها، وتصطفي أفضل ما فيها، وترفض العصبية والإقصاء، لذا فإنها قدمت للعالم عبر قرون من الزمن حضارة عظيمة أسهمت في النهضة الفكرية، وتقدم العلوم، مما أدى إلى ثورة معرفية في جميع المجالات الدينية والفكرية والعلمية والصناعية.

واليوم على الرغم مما تمر به الأمة من ضعف في بعض الجوانب لأسباب عديدة من أهمها اغتراب الواقع السياسي عن حياة الشعوب ونبضها[1]، إلا أنها ما زالت أمة حيَّة ولاَّدة، تستطيع أن تقدم للعالم -الذي يعيش في تخبط حضاري وفكري كبير مع ما يعيشه من تقدم مادي كبير- ما ينتشله من الأوحال التي هو فيها، تقدم للبشرية دلالتها على طريق سعادتها وانتشالها من ظلمات التخبط في متاهات الشرك، والظلم والاستغلال والعبودية، وما هي فيه من بؤس وشقاء وواقع مزرٍ ومستقبل مظلم، بتقديم المشروع الذي يقوم على أسس الإيمان بالله وتوحيده، والتقوى، والعدالة، والأمانة، والرحمة، والوسطية والاعتدال، وسمو الأخلاق، واحترام إنسانية الإنسان، وتقدير العلم والعقل.

والواقع يشهد لذلك؛ فالإسلام أسرع الأديان انتشارًا اليوم، على الرغم من كل الحرب عليه، وفي هذا دليل على تعطش العالم إلى ما ينتشله من التخبط والضلال إلى طريق الحق والسعادة.

إن إدراك أهل السنة والجماعة، حَملة الإسلام لهذا الدور الحضاري المنوط بهم، وهذه الأمانة التي يحملونها على عاتقهم، يحتم عليهم جميعًا بذل جهودهم واستثمارها في سبيل ذلك، والتعاون مع بقية المسلمين في ذلك، وهذا من أعظم الجهاد في سبيل الله تعالى.

وللنجاح في هذا الدور القيادي الريادي لا بد من التعرف على جوانب المشروع الذي يحملونه، والإمكانات التي تتوفر فيه، وتنظيم صفوفهم وترتيب أفكارهم وأولوياتهم لذلك.. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

تستطيع الأمة أن تقدم للبشرية ما ينتشلها من الأوحال التي غرقت فيها، بدلالتها على طريق سعادتها وانتشالها من التخبط في متاهات الشرك والظلم والاستغلال والعبودية، وما هي فيه من بؤس وشقاء وواقع مزرٍ ومستقبل مظلم، بتقديم المشروع الذي يقوم على أسس الإيمان بالله وتوحيده، والعدالة، والأمانة، والرحمة، والوسطية والاعتدال، واحترام الإنسان، وتقدير العلم والعقل

(١) أثبت المسلمون على مر التاريخ أن ما مرَّ به العالم الإسلامي من حالات ضعف و «انحطاط» وتراجع في الجوانب السياسية والعسكرية، لم يكن ذا تأثير كبير على النواحي الفكرية والعلمية؛ نظرًا لاستقلال الفضاء العلمي والفكري برجالاته ومؤسساته وبرامجه، وعدم وجود هيمنة من مؤسسات الحكم والجيش عليه، فبقي العلماء والمفكرون والباحثون عاملين في ميادين البحث والعلم بغض النظر عن الحال السياسية والعسكرية التي مرَّت بها العديد من البلدان.



صفحات مشرقة لعلماء الشام في وجه الاستبداد

أ. محمود كريّم(*)

يزخر تاريخنا بصور مشرقة لعلماء من بلاد الشام بذلوا أوقاتهم وأرواحهم لخدمة الدين، حملوا همّ الأمة، وذادوا عن حياضها، فكانت لهم صولات وجولات أمام المحتل والحاكم المستبد، ودفعوا ضريبة ذلك سَجنًا وقتلًا وتهجيرًا، فحقّ لتلك المواقف العظيمة أن تسطر بأحرف من ذهب.

مقدمة:

العلماء نجوم في سماء الأمة، ينيرون حياتها وتهتدي بهم إن أظلم ليلها وداهمتها الخطوب، هم الأعمدة لصرحها العظيم، والركيزة التي يقوم عليها ذلك الصرح، هم ورثة الأنبياء، نذروا حياتهم ووقتهم لخدمة دين الله عز وجل وتبليغه للناس.

لم يكن العلماء في يوم من الأيام بعيدين عن قضايا أمتهم، منفصلين عن واقعهم، يعيشون في عالمهم الخاص، عاكفين على كراريسهم، منغمسين في التأصيل والتأليف فقط، بل كانوا في الصف الأول يذودون عنها بألسنتهم وأقلامهم وأرواحهم أمام الظلم والاستبداد، سواءٌ كان هذا الاستبداد خارجيًا أم داخليًا.

ورغم وجود بعض الشخصيات الدينية التي خانت أمتها وباعت ضمائرها للمحتل والحاكم الظالم المستبد، إلا أن أعدادهم تتقازم وتتصاغر أمام الجهد العظيم للعلماء المصلحين الذين بذلوا أغلى ما لديهم لنصرة الحق والمستضعفين، وهذا ما سنستعرضه في هذا البحث.

وسنقتصر في هذه المقالة على الحديث عن دور العلماء والأعلام في بلاد الشام خصوصًا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين؛ لما في ذلك من صورة وافية في إظهار جهود العلماء.

ولقد شهدت بلادُ الشام خلال تلك الفترة أواخر حكم الدولة العثمانية وسيطرة الاتحاديين على الحكم، ثم جاء بعدهم المحتل الفرنسي الذي

(*) خرّيج جامعة حلب، كاتب وباحث.

سام البلاد والعباد خسفًا وظلمًا. حتى جلا عنها منتصف القرن العشرين. وكان الفقر متغلغِلًا في المجتمع، بسبب الركود التجاري والصناعي الذي فرضه المحتل.

وفي ظل هذا الوضع المتردي، لا عجب أن يكون الجهل والفساد هما العنوانان الأكثر ظهورًا تلك الحقبة في عموم المجتمع. وهنا كان دور العلماء الذين حملوا على عاتقهم مهمة النهوض بالمجتمع والوقوف في وجه الفساد والظلم، تلك المهمة التي تنوء بها الجبال.

> **يأبى الحقُّ إلا أن يظهر، لتعلم الأجيال أن من قاد الثورات هم علماء مصلحون مخلصون، وإن كان ذلك لا ينفي وجودَ شخصيات وطنية كان لها دور كبير، ساهمت مع العلماء يدًا بيد في الوقوف بوجه المحتل**

وقوف علماء الشام في وجه المحتل الخارجي:

كان العلماء من أوائل من حرّض على الوقوف في وجه المحتل وظلمه، ولم يألوا جهدًا في ذلك، وسلكوا فيه كل المسالك، بأقلامهم وألسنتهم ودمائهم، انطلاقًا من إيمانهم العميق الذي يحضهم على جهاد الأعداء ومقارعتهم في كل الميادين.

وعلى الرغم من محاولات أعداء الأمة طمسَ تاريخها وإزاحةَ العلماء عن المشهد وتهميشَ دورهم في الثورات التي قامت ضد الاحتلال، إلا أن الحق يأبى إلا أن يظهر، لتعلم الأجيال أن من قاد الثورات هم علماء مصلحون مخلصون، وإن كان ذلك لا ينفي وجودَ شخصيات وطنية كان لها دور كبير، وساهمت مع العلماء يدًا بيد في الوقوف بوجه المحتل.

فهذا الإمام المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني[١] يرفض مقابلة «غورو» لما وصل دمشق، ومنع الناس من تأدية الضرائب للفرنسيين أو التعامل معهم، وصار يعلن أن الجهاد فرض على الناس في دروسه العامة، وقد أرسل ابنَه الشيخ تاج الدين الحسني للقتال في معركة ميسلون[٢].

وأنهى الشيخ علي الدقر[٣] إحدى خطبه بجامع السنانية بقوله: «يا إخواننا، اللص دخل الدار وهو يطلب منكم ثلاثة أشياء، دينَكم ومالَكم وعرضَكم. ولما سأله أحد المستمعين: ومن هو هذا اللص يا شيخي؟ أجاب: إنه فرنسا»[٤].

ولما كانت موقعة ميسلون كان الشيخ كامل القصاب[٥] يخطب في دمشق، في الطرق والساحات ومجتمعات الناس، يثيرهم ويحمسهم، إلى أن قضى الله بأن يدخل الفرنسيون دمشق[٦].

وفي معركة التحرير عام ١٩٤٥م كان إمام حماة الشيخ محمد الحامد[٧] على المنبر يلهب النفوس حماسة إلى الجهاد، يخطب والطائرات فوقه تحوم لتضرب المدينة بالقذائف، فلا يخاف ولا يبالي، بل يمضي في خطابه مجاهدًا ومحرضًا[٨].

وجاء بعض علماء دمشق إلى الشيخ عبد المحسن الأسطواني[٩]، وكان حينها رئيس مجلس الشورى، والطائرات تضرب دمشق، يطلبون منه التوجه إلى الجامع الأموي الكبير للدعاء على الفرنسيين، فانتهرهم قائلًا: الدعاء على الأعداء في المساجد صنيع المقعدين، والعدو بحاجة إلى مقاومة، فإلى السلاح[١٠].

وكان الشيخ حسني السباعي[١١] يطوف شوارع حمص وأسواقها مع أكثر علماء حمص وقد تمنطقوا بأحزمة الرصاص وبأيديهم البنادق، يمشون على مهل صفوفًا منتظمة مهللين مكبرين، داعين الشعب إلى مقاومة الفرنسيين[١٢].

(١) علامة الشام في زمانه ومحدثها، توفي عام ١٩٣٥م - ١٣٥٤هـ.
(٢) الإسلام وحركات التحرر العربية، لشوقي أبو خليل ص (١٧٠).
(٣) صاحب النهضة العلمية في الشام، ولد في دمشق وتوفي فيها عام ١٩٤٣م - ١٣٦٢هـ.
(٤) كفاح الشعب العربي السوري دراسة عسكرية، لإحسان الهندي ص (١٣٧).
(٥) من أبرز علماء الإصلاح في الشام، أنشأ المدرسة الكاملية، توفي في دمشق عام ١٩٥٤م - ١٣٧٣هـ.
(٦) رجال من التاريخ، للطنطاوي (١٧٦/٢).
(٧) علامة حماة ومرشدها، توفي عام ١٩٦٩م - ١٣٨٩هـ.
(٨) رجال فقدناهم، لمجد مكي ص (٣٨٥).
(٩) الشيخ المعمر، شغل منصب أمين الفتوى في دمشق، توفي عام ١٩٦٣م - ١٣٨٣هـ.
(١٠) رجال فقدناهم، لمجد مكي ص (٢٢٦).
(١١) من علماء حمص، هو والد الشيخ مصطفى السباعي، توفي عام ١٩٦١م - ١٣٨١هـ.
(١٢) مقال لابنه الشيخ مصطفى السباعي في مجلة حضارة الإسلام، العددان السادس والسابع، السنة الثانية (١٩٦١م - ١٣٨١م).



> **لم يقتصر دور العلماء على التوجيه والتحريض فقط، بل كانوا في الصفوف الأولى أمام العدو، يجاهدون بسلاحهم ويبذلون دماءهم**

وإنك لتعجب من شجاعة أولئك العلماء وجسارتهم أمام المحتل حين ترى بعضهم يقوم بأفعال قد تعرضه للموت والهلاك، كالشيخ محمد ديراني الذي كان يرفع طلقات الرصاص في درسه العام ويقول للناس: إخوانكم بحاجة إلى مثل هذا. ومن فرط جرأته وشجاعته كان يعد في دمشق جنازة شكلية يملأ تابوتها بالذخيرة والبنادق والقنابل، ويخرج أمامها مؤذن ومشيعون وراءها، حتى مخفر الشيخ حسن، فيقوم الضابط والجنود الفرنسيون لتأدية التحية للجنازة، اعتقادًا منهم أنها تحمل جثة ميت، ولما يصل الشيخ محمد ديراني إلى المقبرة تُفرَّغ الذخائر والأسلحة بالقبر مع اتفاق مسبق مع الثوار، فيأتي الثوار ليلًا لأخذ المدد الذي يجعلهم يتابعون جهادهم، وقد حكم عليه بالإعدام بسبب ذلك[(١)].

ولم يقتصر دور العلماء على التوجيه والتحريض فقط، بل كانوا في الصفوف الأولى أمام العدو، يجاهدون بسلاحهم ويبذلون دماءهم، فهذا الشيخ المجاهد حسن حبنكة الميداني يحمل السلاح وينخرط في سلك الثوار والمجاهدين، وانتقل من مسجد إلى مسجد، ومن حي إلى حي، ومن بلد إلى بلد، وتردد طويلًا بين دمشق وبين قرى غوطتها الواسعة، وهو في كل ذلك يحمل كتابه في يد وسلاحه في اليد الأخرى[(٢)].

وفي معركة ميسلون أمام الفرنسيين استُشهِدَت مجموعة كبيرة من علماء الشام ودعاتها، مِنهم الشيخ عبد القادر كيوان[(٣)]، والشيخ كمال الخطيب[(٤)]، والشيخ محمد توفيق الدرا[(٥)]، وغيرهم الكثير من العلماء والمشايخ.

وكان علماء الشام من أوائل من حذر من خطر اليهود ودعا إلى الوقوف في وجههم، وكانوا

---

(١) الإسلام وحركات التحرر العربية، لشوقي أبو خليل ص (١٦١).
(٢) رجال فقدناهم، لمجد مكي ص (٨٠٢).
(٣) هو عالم وشاعر، نشأ وترعرع في دمشق، كان خطيب الجامع الأموي الكبير.
(٤) عالم وفقيه، ولد في دمشق، كان مدرسًا في الجامع الأموي الكبير.
(٥) نشأ في دمشق وتوفي فيها، كان مفتيًا للجيش الخامس العثماني.

في طليعة الجيوش التي تصدت لهم، فقد أذاقهم الشيخ المجاهد عز الدين القسام[١] الويلات حتى استُشهد على ثرى فلسطين، ومما يعطي صورة واضحة عن الأثر الذي أحدثه استشهاد الشيخ القسام في البلاد ما جاء في التقرير السنوي لحكومة الانتداب البريطاني في فلسطين، إلى لجنة الانتداب في جنيف عن وقائع عام ١٩٣٥م، ومما جاء فيه: «وسرعان ما أدى هذا الحادث إلى اكتشاف عصابة كانت في ذلك الجوار تحت قيادة عز الدين القسام، وهو لاجئ سياسي من سوريا، وهو ذو مكانة ليست بالقليلة كرجل من رجال الدين»[٢].

> **كان علماء الشام من أوائل من حذر من خطر اليهود ودعا إلى الوقوف في وجههم، وكانوا في طليعة الجيوش التي تصدَّت لهم**

ولم يكن الشيخ المجاهد القسام الوحيد الذي أقضَّ مضاجعَ يهود، فهذا الشيخ الحاج أمين الحسيني[٣]، لم يهب اليهودُ أحدًا كما هابوه، ولم يكرهوا أحدًا كما كرهوه، ولم يحاربوا أحدًا كما حاربوه، حتى إنهم رفضوا السماح لجثمانه بالدخول إلى بيت المقدس ليدفن حسب وصيته، ولم يحاولوا تشويه تاريخ زعيم عربي كما حاولوا تشويه تاريخه المديد الحافل بمختلف الوسائل والأساليب[٤].

وقوف علماء الشام في وجه استبداد الحكام:

لم يقتصر نضال علماء الشام على الوقوف في وجه المحتل الخارجي واستبداده بحق أبناء الأمة؛ بل كانت لهم صولات وجولات أمام الحكام، فهم ليسوا ممن يقف في وجه الغريب ويداهن وينافق للقريب، وليقينهم أن الظلم ظلمٌ أيًا كان فاعله سواءٌ كان محتلًا أم حاكمًا من أبناء جلدتنا. فقد حرّم الله الظلم على نفسه أولًا ثم حرمه على الناس، فعن أبي ذر الغفاري ﷺ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: (يا عِبادي إني حَرَّمتُ الظّلم على نَفسِي، وجَعَلتُه بينَكُم مُحرمًا فلا تَظَالموا)[٥].

وجاء في حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (سَيِّدُ الشّهداءِ حمزة بن عبد المطلب، ورَجلٌ قامَ إلى إمامٍ جَائرٍ فَأَمَرَهُ ونَهَاهُ فَقَتَلَه)[٦].

ونستعرض فيما يلي صورًا من مواقف علماء الشام ومصلحيها مع الحكام:

كان الشيخ المحدث الأكبر بدر الدين الحسني لا يزور الحكام ولا يذهب إليهم، وإنما كانوا هم الذين يزورونه، وإذا أراد أن يبلغهم أمرًا يتعلق بمصلحة عامة أو شفاعة خاصة أرسل بعض تلاميذه إليهم يبلغهم رسالة الشيخ وكلامه، وكانوا يتلقون ذلك بالقبول والاحترام، وكانت له عندهم حرمة كبيرة وهيبة عظيمة، حتى إن جمال باشا كان حينما يزوره في غرفته يجلس على الأرض على ركبتيه مطرقًا برأسه، وكان يُسمِعُه الشيخ مواعظه القوية وينبّهه إلى ما يجب على الحكام من العدل والبعد عن الظلم[٧].

ومما جاء في رسالة أرسلها الشيخ إلى جمال باشا، حينما طلب منه أن يتحفه ببعض إرشاداته خطًا: «فإن الظفر والنصر، واستقامة الأمر، باتباع الحق والعمل به بين الخلق، وإن الظلم وارتكاب المحرمات السبب الأقوى لنقص الأرزاق، وحلول أنواع البليات»[٨].

> **«فإن الظفر والنصر، واستقامة الأمر، باتباع الحق والعمل به بين الخلق، وإن الظلم وارتكاب المحرمات السبب الأقوى لنقص الأرزاق، وحلول أنواع البليات»**
> من رسالة الشيخ بدر الدين الحسني إلى جمال باشا

وكان موقف الشيخ ثابتًا حتى مع المقربين منه، فحينما تولى ابنه الشيخ تاج الدين رياسة الوزارة في المرة الأولى، جاء لزيارة أبيه فوجده غير راضٍ

(١) الشيخ المجاهد، ولد في جبلة بمدينة اللاذقية وتوفي في فلسطين عام ١٩٣٥م - ١٣٥٤هـ.
(٢) رجال فقدناهم، لمجد مكي ص (٨٧).
(٣) المفتي العام للقدس، توفي عام ١٩٧٤م - ١٣٩٤هـ.
(٤) المصدر السابق ص (٦٧٣).
(٥) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (برقم: ٤٩٥٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٤).
(٧) رجال فقدناهم، لمجد مكي ص (٧٦).
(٨) الإسلام وحركات التحرر العربية، لشوقي أبو خليل ص (١٦٥).



لتوليه الحكم، لأنه حكم غير إسلامي ولا تقام فيه حدود الشريعة، ثم لم يجتمع الشيخ بابنه ولا زاره في أثناء وجوده في الحكم في المرتين الأولى والثانية(١).

وكان الشيخ جمال الدين القاسمي(٢) من أوائل علماء الإصلاح الذين أنفقوا سنوات من عمرهم في سبيل تنوير الناس وإنكار الجمود والتقليد الأعمى الذي كان مهيمنًا على المجتمع حينها في كافة المجالات؛ الدينية والسياسية والاجتماعية، وتحمل هو ورفاقه أذى الولاة الذين كانوا يضيقون عليه لوشايات بعض المحسوبين على العلم ممن كان يطلق عليهم الشيخ «الحشوية»(٣).

وجاب الشيخ طاهر الجزائري(٤) عددًا من البلدان داعيًا إلى التجديد وبعث الهمة في المجتمع، وقد دعا الحكومة العثمانية حينها إلى إدخال بعض الإصلاحات السياسية والإدارية على الدولة من أجل الحفاظ عليها، وضمان بقائها واستمرارها، إلا أنها تجاهلت نصائحه واعتبرت دعوته أمرًا يتنافى مع أمنها ومصالحها(٥).

وهذا الشيخ الأديب محب الدين الخطيب(٦) بعد أن أرسله الشيخ كامل القصاب إلى الحجاز للقاء الشريف حسين وتقديم المشورة له، لم يمنعه قربه منه عن قول كلمة الحق فيه، فلم يداهن ولم ينافق، فيقول: «لقد أردنا والشيخ القصاب للملك حسين وأولاده كل الخير والكرامة، بشرط أن يكون الخير والكرامة للأمة الكريمة التي يكونون على رأسها، ولكن الملك حسين وأولاده عاشوا وماتوا بعقلية عصور الإقطاع التي تعتبر الأوطان مزارع للملوك»(٧).

ولا ننسى موقف الشيخ حسن حبنكة الميداني(٨) حين حرّك الجماهير المسلمة لإلغاء قانون الطوائف الذي وضعته الحكومة ليطبّق على المسلمين في

---

(١) رجال فقدناهم، لمجد مكي ص (٧٧).
(٢) الإمام المجدد، ولد في دمشق وتوفي فيها عام ١٩١٤م - ١٣٣٢هـ.
(٣) كتاب جمال الدين القاسمي أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام، د. نزار أباظة ص (١٣٨).
(٤) من أصول جزائرية، من العلماء المطالبين بالإصلاح، ولد في دمشق، وتوفي فيها عام ١٩٢٠م - ١٣٣٨هـ.
(٥) كتاب الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام، لحازم زكريا ص (٥٣).
(٦) شاعر ومفكر إسلامي من دمشق، توفي في مصر عام ١٩٦٩م - ١٣٨٩هـ.
(٧) مذكرات محب الدين الخطيب ص (١٥٦).
(٨) العالم المجاهد، تخرج على يديه كبار علماء سوريا في العصر الحديث، توفي ١٩٧٨م - ١٣٩٨هـ.

سورية ولبنان، وبقي على موقفه حتى تراجعت الدولة عن قرارها فأوقفته[١].

دفع علماءُ الشام ثمنًا كبيرًا جرّاء صدعهم بالحق ووقوفهم في وجه الظلم، فمنهم من قُتل، ومنهم من هُجِّر، ومنهم من سُجن، ومنهم من ضُيِّق عليه في أرضه ورزقه

ولما وقع انقلاب أديب الشيشكلي عام ١٩٤٩م، كان الشيخ أنيس الملوحي[٢] عضوًا في المحكمة العليا وهي أعلى محكمة في الدولة يومئذ، كان أحد الثلاثة الذين أبَوا أن ينكثوا بأيمانهم التي أقسموها، فاستقالوا غير عابئين بتهديد ولا وعيد[٣].

ما جرّه الصدع بالحق عليهم:

دفع علماءُ الشام ثمنًا كبيرًا جراء صدعهم الحق ووقوفهم في وجه الظلم، فمنهم من قُتل، ومنهم من هُجِّر، ومنهم من سُجن، ومنهم من ضُيِّق عليه في أرضه ورزقه. إلا أن ذلك لم يضعف من عزيمتهم ولم يثنهم عمّا هم عليه.

فقد استدعيت مجموعة من خيرة علماء دمشق إلى المحكمة بدسائس من بعض المحسوبين على العلم، في الحادثة المعروفة بـ «حادثة المجتهدين» منهم الشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ عبدالرزاق البيطار[٤] والشيخ أمين السفرجلاني[٥] حيث اتُّهموا بالاجتهاد في الدين والدعوة إلى مذهب جديد يسمى «المذهب الجمالي»، نسبة إلى الشيخ جمال الدين القاسمي، وكانت البلاد حينها في تقليد أعمى في كل شيء، والبدع في الدين منتشرة بشكل كبير، وقد تعرض المشايخ جراء ذلك لأذى شديد، فبقي الشيخ القاسمي طول حياته مراقبًا من الولاة وأعوانهم، واستدعي عدة مرات إلى المحاكمة، وصودرت كتبه، واضطر في بعض المواقف إلى الاعتزال في بيته والتوقف عن إعطاء الدروس[٦].

وها هي الحكومة العثمانية تقيل الشيخ طاهر الجزائري من وظيفته مفتشًا في المدارس عام ١٨٨٦م، تخوفًا من نشر أفكاره في التجديد[٧]. إلا أن نشاطه قد زاد، وارتفع صوته وسطع نجمه، وواجه مقاومة من أعداء الإصلاح الجامدين الذين كانوا كثيرًا ما يستعينون عليه فيشكونه إلى الحكام ويسودون صفحته عندهم، فزاد التضييق عليه حتى اضطر إلى مغادرة دمشق عام ١٩٠٧ م، والتجأ إلى مصر وبقي فيها اثني عشر عامًا[٨].

وحين دخل الفرنسيون دمشق عقب معركة ميسلون، أصدروا قائمة بأسماء مجموعة من العلماء والمجاهدين حكموا عليهم بالقتل، وكان أول اسم في القائمة اسم الشيخ كامل القصاب، فاضطر لترك دياره والهجرة إلى الحجاز[٩].

وتعرض الأديب الشيخ محب الدين الخطيب إلى مضايقات أمنية جراء نشاطه السياسي، فاضطر إلى بيع داره في دمشق ثم هاجر متنقلًا من بلد إلى آخر[١٠] متحملًا ألم الهجرة على أن يترك الصدع بالحق.

خاتمة:

يمثل العلماء الذين مرّ ذكرهم في السطور السابقة نموذجًا مشرقًا للعلماء العاملين المخلصين الذين أدركوا بعلمهم ووعيهم أن الدين أمانة في أعناقهم، وأداؤها يكون بتبليغها للناس ونشرها في المجتمع، وهي ليست أحكامًا نظرية تزين فيها الكتب والمجلدات. ولذلك عملوا بما علموا، فكانوا مع الناس في السراء والضراء، ذادوا عن حياض الدين وقارعوا مع أبناء جلدتهم أعداء الأمة بمدادهم ودمائهم، ونصحوا الحاكم بالرفق حيث يكون مجال الرفق، ووقفوا في وجهه بحزم حين استدعت الحاجة ذلك، عارفين بما سيجره ذلك عليهم من أذى وضر، محتسبين كل ذلك عند الله. فاستحقوا ثناء الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) المصدر السابق ص (٧٩٥).
(٢) من رواد النهضة في حمص، توفي عام ١٩٦٠م - ١٣٨٠هـ.
(٣) رجال فقدناهم، لمجد مكي ص (١٣٩).
(٤) من أكابر علماء دمشق، وهو جد الشيخ محمد بهجة البيطار، توفي عام ١٩١٦م - ١٣٣٥هـ.
(٥) من علماء دمشق، توفي عام ١٩١٦م - ١٣٢٩هـ.
(٦) جمال الدين القاسمي أحد علماء الإصلاح في الشام، د. نزار أباظة، ص (١١٢ - ١١٦) بتصرف.
(٧) الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام، لحازم زكريا ص (٤٠).
(٨) صفحات من تاريخ الأحزاب السياسية في سورية القرن العشرين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
(٩) رجال من التاريخ، لعلي الطنطاوي (١٦٨/٢).
(١٠) مذكرات محب الدين الخطيب ص (١٤١).

تأصيل



ضوابط الأخذ بالأيسر من الأقوال الفقهية

أ. عبد الرحمن بن عبد الله رجو(*)

إن تَتَبُّعَ الأسهلِ والأهونِ من أقوال الفقهاء في المسائل التي اختلفت فيها آراؤُهم واجتهاداتُهم طريقةٌ خطيرة؛ إذ فيها ضياع الدين، وانحلالٌ من التكاليف الشرعية؛ لأن الآمِر حينها يكون هوى النفوس ورغباتها، وهو المتَّبع، وأما ترخُّص المرءِ في بعض حالاته دونَ أن يجعل ديدنه ما سهُلَ من الأقوال والآراء، ووفق الضوابط المعتبرة عند العلماء فلا حرج فيه.

اقتضت حكمة الله تعالى أن يختلف العلماء في مسائل الفروع الاجتهادية؛ ويرجع ذلك إلى أسباب موضوعية، منها: بلوغ الأخبار والآثار إلى العلماء والقواعد التي يلتزم بها العالم في ثبوتها، وأخرى ترجع إلى اللغة ودلالات الألفاظ وضوحًا وجلاء وغموضًا وخفاء، ومنها يعود إلى اختلاف الفهم والإدراك والتصوُّر لدى المجتهدين في مجالات التطبيق وتحقيق المناط[1].

ونحن اليوم في زمن كثر فيه المتصدرون للفتاوى، خاصة مع تطور وسائل الإعلام وانتشارها، فنجد فيها من جعل ديدنَه الترخُّص بالأسهل والأهون من أقوال الفقهاء، فلا يكاد يقع على قول في كتاب من كتب الفقه يخدم طريقتَه حتى يسارعَ للقول والإفتاء به؛ جاعلًا من الاختلاف حجة. ونجد في الطرف الآخر مَنْ أخذ برأي وتعصَّب له، ولم يبال بمن خالفه، بل ربما رماه بفسق أو بدعة.

ومن هنا يرد السؤال: ما الرُّخص الفقهية؟ وهل للمكلَّف أن يتخيَّر الأسهل عليه من أقوال الفقهاء في المسائل التي اختلفوا فيها؟

أولًا: تأتي التَّسهيلات والرُّخص على نوعين:

الأول: الرُّخص الشرعية: ويُقصد بها ما شُرع من الأحكام لعذر؛ مع قيام السبب الموجب

(*) باحث في الدراسات العربية والإسلامية.

(١) أدب الاختلاف، عبد الله بن بيه، ورقة مقدمة إلى مؤتمر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ، ص (١٣). وأسباب اختلاف الفقهاء، د. حمد الصاعدي، ص (٦٨).

للحكم الأصلي. وذلك مثل: المسح على الخفين، فالحكم الأصلي الواجب في طهارة الوضوء هو غسل الرجلين، والرخصة هي المسح على الخفين لعذر، والعذر هو مشقة النزع واللبس[(١)].

وهذه الرخص الثابتة بالدليل لا خلاف عند العلماء في مشروعيَّة الأخذ بها، إذا وُجِدت أسبابُها وتحقَّقت شروطها، وفي الحديث: (إن اللهَ يحبُّ أن تُؤتَى رُخَصُه، كما يكرهُ أن تُؤتَى معصيتُه)[(٢)].

> في زمن تطور وسائل الإعلام وتنوعها كثر المتصدرون للفتاوى، حتى ظهر مَنْ جعل ديدنَه الترخُّص بالأسهل من اجتهادات العلماء، مما جعل الحاجة ماسَّة للتذكير بضوابط الترخص بالأقوال الفقهية.

الثاني: رخص الفقهاء: ويُقصد بها ما جاء من اجتهادات بعض العلماء مبيحًا لأمر في مقابلة اجتهادات أخرى تمنعه[(٣)]. ومثال ذلك مسألة إخراج زكاة الفطر[(٤)]، فجمهور العلماء على لزوم إخراجها من الطعام، ولكن الحنفية قالوا بجواز إخراج قيمتها من النقود.

وهذا النوع من الرُّخص (رخص الفقهاء) هو المقصود بهذه المقالة، وعليه مدارها.

ثانيًا: تتبع رخص الفقهاء:

المراد بتتبع رخص الفقهاء: أن يختار الشخصُ القولَ الأهونَ عليه من مذاهب واجتهادات الفقهاء، فيما اختلفوا فيه من المسائل[(٥)]. وللعلماء في حكم ذلك أقوال عديدة، من أهمها:

القول الأول: جواز تتبع رخص العلماء مطلقًا، ولقد وصل ببعضهم إلى القول: «كل مسألة ثبتَ لأحد من العلماء فيها القولُ بالجواز -شذ عن الجماعة أو لا- فالمسألة جائزة»[(٦)].

القول الثاني: منع تتبع رخص الفقهاء، وهو قول أكثر أهل العلم؛ وذلك لأمور كثيرة، منها:

١. أنّ القول بجواز تتبع الرخص بإطلاق يكون ذريعةً إلى التحلل من التكاليف الشرعية، وسبيلًا إلى الوقوع في اتباع هوى النفوس ورغباتها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، قال القَرَافي: «وأما اتباع الهوى في الحكم والفتيا فحرام إجماعًا»[(٧)].

قال النووي: «لو جاز اتباعُ أيِّ مذهب شاء، لأفضى إلى أن يَلتقطَ رخصَ المذاهب متبعًا هواه، ويتخير بين التحليل والتحريم والوجوب والجواز، وذلك يؤدي إلى انحلال رَبقة التكليف»[(٨)].

> الرخص الشرعية الثابتة بالدليل لا خلاف عند العلماء في مشروعيَّة الأخذ بها، إذا وُجِدت أسبابُها وتحقَّقت شروطها، فالله تعالى يحبُّ أن تُؤتَى رُخَصُه.

وقال ابن القيم: «وبالجملة فلا يجوز العمل والإفتاء في دين الله بالتشهي والتخيُّر وموافقة الغرض، فيطلب القول الذي يوافق غرضَه وغرضَ من يحابيه، فيعمل به ويفتي به ويحكم به، ويحكم على عدوه ويفتيه بضده، وهذا من أفسق الفسوق وأكبر الكبائر والله المستعان»[(٩)].

٢. أن الاختلاف ليس حجةً حتى يصحَّ الأخذ بأي قول جاء في مسائل الخلاف، بل لا بد من النظر

---

(١) مجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة التعاون الإسلامي بجدة، الدورة الثامنة، (المنعقدة ببروناي، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، قرار رقم (٧٠) بشأن الأخذ بالرخصة. وبلغة السالك، للصاوي (١٠٦/١)، وحاشية الدسوقي (١٤١/١)، وتحفة الحبيب، للبجيرمي (٤٠١/١).

(٢) أخرجه أحمد (٥٨٦٦)، والحديث صحيح، ينظر: صحيح ابن خزيمة، بتحقيق محمد الأعظمي، (٧٣/٢)، وصحيح ابن حبان، بتحقيق شعيب الأرنؤوط (٤٥١/٦).

(٣) مجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة التعاون الإسلامي بجدة، الدورة الثامنة، (المنعقدة ببروناي، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، قرار رقم ٧٠ بشأن الأخذ بالرخصة وحكمه.

(٤) اختلاف الأئمة العلماء، لابن هبيرة (٢١٤/١).

(٥) البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي (٦٠٢/٤). وفتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، لابن عليش (٦٠/١).

(٦) حكاه الخطابي عن بعضهم، ينظر: الاعتصام، للشاطبي (٥٤٢/١).

(٧) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، القرافي، ص (٩٢)، وتبصرة الحكام، لابن فرحون (٢٦/١).

(٨) المجموع، للنووي (٥٥/١).

(٩) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية (٢١١/٤).

إلى مأخذ الاختلاف والموازنة بين الأدلة، وذلك لمن كان أهلًا لذلك، وأما العامي فيلزمه سؤال واستفتاء أهل العلم[١].

«الاختلاف ليس بحجة عند أحدٍ علِمتُه من فقهاء الأمة، إلا مَنْ لا بصرَ له، ولا معرفةَ عنده، ولا حجةَ في قوله»
ابن عبد البر

قال الحافظ ابن عبد البر: «الاختلاف ليس بحجة عند أحدٍ علِمتُه من فقهاء الأمة، إلا مَنْ لا بصرَ له، ولا معرفةَ عنده، ولا حجةَ في قوله»[٢].

وقال الزركشي: «اعلم أن عينَ الخلاف لا ينتصب شبهةً، ولا يُراعى، بل النظر إلى المأخذ وقوَّته»[٣].

٣. أن الحقَّ واحدٌ عند المجتهدين، والمجتهد المخطئ في اجتهاده معذور في ذلك، وهو مصيبٌ في العمل بما أداه إليه اجتهاده، ولكن هذا لا يعني جواز تتبع الأسهل من هذه الأقوال.

قال ابن عابدين: «والصحيح عندنا أنَّ الحقَّ واحد، وأن تتبعَ الرُّخص فسق»[٤].

وقال الشوكاني: «ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي وأكثر الفقهاء إلى أن الحق في أحد الأقوال، ولم يتعيَّن لنا، وهو عند الله متعين، لاستحالة أن يكون الشيء الواحد، في الزمان الواحد، في الشخص الواحد حلالًا وحرامًا، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يُخطِّئ بعضهم بعضًا، ويعترض بعضُهم على بعض، ولو كان اجتهادُ كلِّ مجتهد حقًّا لم يكن للتخطئة وجهٌ»[٥].

«إنَّما العلمُ عندنا: الرخصةُ من ثقة، فأما التشديدُ فيحسنُه كلُّ أحد»
سفيان الثوري

ثالثًا: الأخذ برخص الفقهاء دون تتبع لها:

الأخذ بالأيسر من أقوال الفقهاء في مسألة ما لضرورة أو حاجة منضبطة، دون تتبع للرخص لا مانع منه على قول كثير من العلماء؛ وذلك تحقيقًا لمقصد الشريعة في التيسير، فالنبي ﷺ ما خُيِّر بين أمرين إلا واختار أيسرهما.

قال سفيان الثوري: «إنَّما العلمُ عندنا: الرخصةُ من ثقة، فأما التشديدُ فيحسنُه كلُّ أحد»[٦].

قال ابن الهمام: «وكونُ الإنسان يتبعُ ما هو أخفُّ على نفسه من قول مجتهد مسوغ له الاجتهاد: ما علمت من الشرع ذمَّه عليه، وكان ﷺ يحبُّ ما خفَّفَ عن أمته»[٧].

وقال ابن عليش: «وأما التقليد في الرخصة من غير تتبع، بل عند الحاجة إليها في بعض الأحوال خوفَ فتنة ونحوها؛ فله ذلك»[٨].

قال الزركشي: «وفي فتاوى النووي الجزم بأنه لا يجوز تتبع الرخص، وقال في فتاوٍ له أخرى، وقد سئل عن مقلد مذهب: هل يجوز له أن يقلد غير مذهبه في رخصة لضرورة ونحوها؟ أجاب: يجوز له أن يعمل بفتوى من يصلح للإفتاء إذا سأله اتفاقًا من غير تلقُّطِ الرخص ولا تعمُّدِ سؤالِ من يعلم أن مذهبه الترخيص في ذلك»[٩].

رابعًا: من ضوابط الأخذ بالأيسر من أقوال الفقهاء:

ذكر العلماء عددًا من ضوابط الترخُّص بالأقوال الفقهية، وبالالتزام والتقيد بهذه الضوابط تُحفظ الشريعة من العبث في أحكامها والخروج على نظامها، وتُسدُّ نوافذ اتباع الهوى والتحلُّل من التكاليف، مع تحقيق مقصد الشريعة في التيسير... ومن هذه الضوابط:

الضابط الأول: أن يكون الأخذ بالأيسر في الأحكام الشرعية الفروعيَّة الاجتهادية، وهي

---

(١) الاحتجاج بالخلاف، د. أسامة الشيبان، ص (٧٦).
(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (١٧٩/٢).
(٣) البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي (٥٥٠/٤).
(٤) حاشية ابن عابدين (٣٧١/١).
(٥) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني (٢٣١/٢).
(٦) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٧٧/٢) رقم (٧٦٦).
(٧) شرح فتح القدير، لابن الهمام (٢٥٨/٧).
(٨) فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، ابن عليش (٦٠/١).
(٩) البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي (٦٠٢/٤).

الأخذ بالأهون من أقوال الفقهاء دون تتبع لها، لا مانع منه، ما دام الآخذ به ملتزمًا بالضوابط الشرعية، التي بوجودها تُحفظ الشريعة من الفوضى واتباع الهوى

القضايا العملية التي ثبتت أحكامها بطريق ظني أغلبي. وأما مسائل العقائد وأصول الإيمان، كمعرفة الله تعالى وصفاته، وإثبات وجود الله ووحدانيته، وكل ما عُلِم من الدين بالضرورة في جميع التكاليف الشرعية، كأركان الإسلام الخمسة وحرمة الربا، والزنا، وحل البيع والزواج والقرض ونحوها، مما هو ثابت قطعًا بالإجماع، فلا يجوز فيها تقليد ولا تلفيق ولا أخذ بالأيسر، وإنما المطلوب من المكلَّف العلمُ بهذه الأمور[١].

الضابط الثاني: ألا يؤدي الأخذ بالأيسر إلى التلفيق المذموم، والتلفيق بين أقوال الفقهاء يعتبر مذمومًا إذا كان في مسألة واحدة لا في مسائل متعددة؛ وذلك بأن يأتي المقلد في مسألة ذات فرعين مترابطين فأكثر، فيقلد إمامًا في جزء منها، ويقلد آخرَ في جانب مرتبط بها، فينشأ منهما حقيقة واحدة، لا يقول بصحتها كلا الإمامين، وهذا هو التلفيق بمعناه المشهور[٢].

ومن صور ذلك: رجل تزوج بامرأة بلا ولي ولا شهود، يقلّد الإمام أبا حنيفة في عدم اشتراط الولاية، ويقلّد الإمام مالكًا -في رواية له- في عدم اشتراط الشهادة بذاتها، وأن إعلان الزواج كاف[٣].

فهذا العقد على هذه الصورة لا يصح عند كلا الإمامين؛ إذْ تولّد منه كيفية مخالفة لرأي هذين العالمين، فلا يصح عند الإمام أبي حنيفة؛ لعدم وجود الإشهاد على العقد، ولا يصح عند الإمام مالك؛ لعدم وجود الولي. ولا شك أن فيه تلاعبًا بالشريعة وخروجًا عن مقاصدها[٤].

الضابط الثالث: أن تكون هناك ضرورة أو حاجة للأخذ بالأيسر[٥]؛ وذلك لحفظ الشريعة من العبث واتباع رغبات النفوس؛ إذ في اتباع أهواء النفوس فساد الدين والدنيا.

والأخذ بالأيسر للضرورات والحاجات المنضبطة بضوابط الشرع لا يدخل في اتباع الهوى[٦]؛ إذ من القواعد الفقهية: (الضرورات تبيح المحظورات) و(المشقة تجلب التيسير)[٧].

قال السُّبكي: «يجوز التقليد للجاهل والأخذ بالرخصة من أقوال العلماء بعضَ الأوقات عند مسيس الحاجة من غير تتبع الرخص»[٨].

ومثال ذلك: مسألة نقل الدم بعِوَض، فهو من المحرمات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل: ١١٥]، وفي الحديث: (إن الله إذا حرم شيئًا حرَّم ثمنه)[٩].

وأخرج البخاري عن أبي جُحَيفة رضي الله عنه أنه قال: (نهى رسولُ الله ﷺ عن ثمن الدَّم، وثمنِ الكلب، وكسْبِ الأَمَة، ولَعَنَ الواشمةَ والمستوشمةَ، وآكلَ الربا ومُوكِلَه، ولَعَنَ المصوِّر)[١٠].

قال ابن حجر: «واختُلِفَ في المراد به، فقيل: أجرة الحجامة، وقيل: هو على ظاهره، والمراد

---

(١) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، للقَرَافي، ص (١٩٢). والفقه الإسلامي وأدلته، د.الزحيلي (٩٧/١).

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، د.الزحيلي (١٠٢/١). ومجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة التعاون الإسلامي بجدة، الدورة الثامنة، (المنعقدة ببروناي، ١٤١٤ه/١٩٩٣م)، قرار رقم ٧٠ بشأن الأخذ بالرخصة وحكمه. وأصول الفقه، عياض السلمي، ص (٣٣٤).

(٣) حاشية ابن عابدين (٥٤/٣). والاستذكار، لابن عبد البر (٤٧١/٥)، والتاج والإكليل، للعبدري (٤٠٨/٣).

(٤) تتبع الرخص (التأصيل والواقع)، لعبد اللطيف التويجري، مجلة البيان، ع (٤)، ص (٢٣٠).

(٥) الفقه الإسلامي وأدلته، د.الزحيلي (١٠٤/١). والرخص الفقهية، لأحمد عزو عناية، ص(٨٢). والمراد بالضرورة: بلوغ الإنسان حدًّا إذا لم يعمل بالممنوع عنه هلك أو قارب. والحاجة: ما يترتب على عدم الاستجابة إليها عسر ومشقة، ولكنها غير مهلكة. انظر: الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، لمحمد آل بورنو، ص(٢٤٢). والمنثور في القواعد، للزركشي (٣١٩/٢). والأشباه والنظائر، للسيوطي، ص (٨٥).

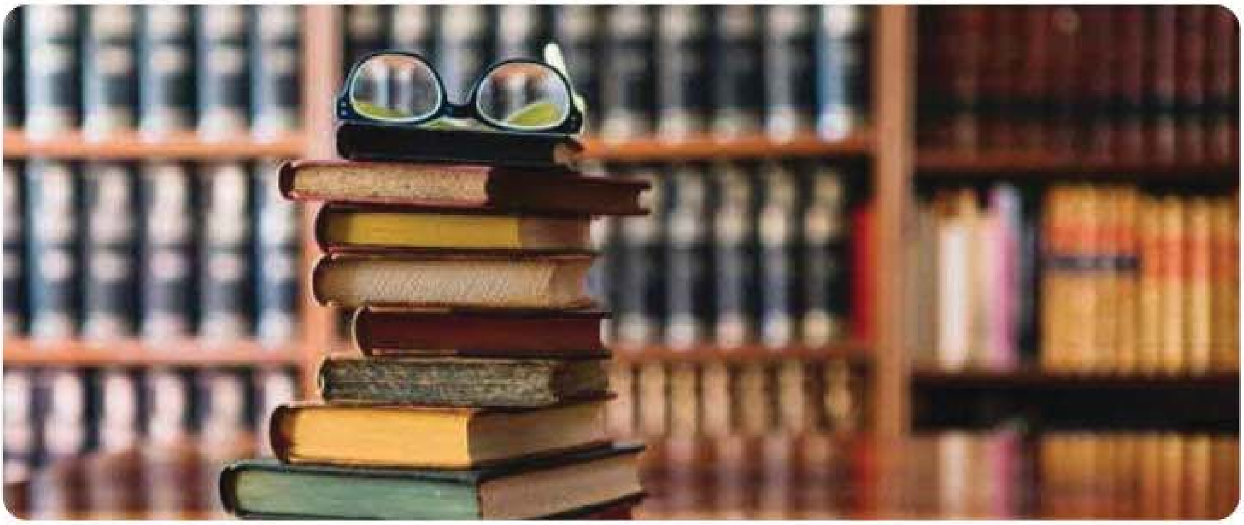
(٦) من ضوابط الضرورة الشرعية: أن تكون قائمة لا منتظرة، ويقينية أو غالبة الظن، وملجئة أو محرجة، وأن تؤتى بقدرها. ينظر: نظرية الضرورة الشرعية، لوهبة الزحيلي، ص (٦٦-٧٢). ومن ضوابط الحاجة الشرعية: أن تكون معتبرة لا تعارض أصول الشارع ومقاصده، ومتعيّنة ومتحققة، وأن تكون المشقةُ فيها مشقةً غير معتادة. ينظر: مقال ضوابط الحاجة التي تنزل منزلة الضرورة، لوليد الزير، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد (٢٦)، العدد الأول، سنة ٢٠١٠م، ص (٦٧٥).

(٧) الأشباه والنظائر، للسيوطي، ص (٧٦-٨٨)، والأشباه والنظائر، لابن نجيم، ص (٩١)، والمنثور في القواعد، للزركشي (١٦٩/٣). وأصول الفقه على منهج أهل الحديث، لزكريا بن غلام قادر، ص (١٣٤).

(٨) الإبهاج في شرح المنهاج، للسبكي (١٩/٣).

(٩) أخرجه أحمد (٢٦٧٨)، والدارقطني في سننه، رقم (٢٨١٥).

(١٠) أخرجه البخاري (٢٢٣٨).



تحريم بيع الدم، كما حرم بيع الميتة والخنزير، وهو حرام إجماعًا، يعني بيعَ الدم وأخذَ ثمنه»[١].

فبيع الدم حرام بالإجماع، ولكن المريض الذي يحتاج الدَّم، ولم يجد متبرعًا، رخَّص له الفقهاء أن يشتريه، ويكون الإثم على آخذ العوض؛ وذلك لما هو عليه من الضرورة[٢].

الضابط الرابع: أن يُترخَّص بقولٍ معتبرٍ شرعًا، لم يُنعَت بالشذوذ[٣]. ويوصف القولُ بالشذُوذ عند الفقهاء: إذا جاء على خلاف النصوص الصحيحة الصريحة، أو جاء على خلاف إجماع سابق، أو انفرد به عدد قليل من العلماء مقابل قول عامة أهل العلم مع ضعف مأخذهم، أو كان مهجورًا ليس عليه عمل العلماء، أو كان مخالفًا لأصول الشريعة وقواعدها العامة [٤].

ولقد حذر العلماء من تتبع شواذّ الأقوال وزلات العلماء، حتى قال الأوزاعي: «من أخذ بنوادر العلماء خرج من الإسلام»[٥].

فلا يجوز الترخّص بمثل هذه الأقوال، مع حفظ مكانة مَن قال بها من العلماء في القلوب؛ إذ لا يكاد يسلَمُ أحد من الخطأ. قال ابن تيمية: «إنَّ الرَّجلَ الجليل الذي له في الإسلام قدَمٌ صالحة وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكانة عُليا، قد تكون منه الهفوة والزلَّة، هو فيها معذور بل مأجور، لا يجوز أن يُتَّبع فيها، مع بقاء مكانته ومنزلته في قلوب المؤمنين»[٦].

ومن أمثلة هذا الضابط: ما نُسب لأبي سعيد الإصطخري أنّ صناعة التماثيل وعموم أنواع الصور جائزة، وأنّ سبب التشديد الوارد في النهي أن الناس كانوا قريبي عهد بعبادة الأوثان، ولما زال ذاك الخوف باستقرار بطلان تعظيمها في نفوسهم زال حكم تحريمها واستعمالها[٧].

قال ابن دقيق العيد: «وهذا القول عندنا باطل قطعًا؛ لأنّه قد ورد في الأحاديث الإخبار عن أمر الآخرة بعذاب المصورين، وأنّهم يُقال لهم: «أحيوا ما خلقتم»، وهذه علّة مخالفة لما قاله هذا القائل، وقد صرّح بذلك في قوله عليه السلام: «المشبهون بخلق الله» وهذه علّة عامّة مستقلّة مناسبة لا تخص زمانًا دون زمان، وليس لنا أن نتصرف في النصوص المتظاهرة المتضافرة بمعنىً خيالي، يمكن أن يكون هو المراد مع اقتضاء اللفظ التعليل بغيره، وهو التشبّه بخلق الله»[٨].

(١) فتح الباري، لابن حجر (٤٢٧/٤).
(٢) مجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي، دوراته العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة، (١٤٠٨-١٤٠٩هـ-١٤١٠هـ)، ص ٨٣. وفقه الضرورة وتطبيقاتها المعاصرة، لعبدالوهاب أبو سليمان، ص (١٩٠).
(٣) مجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة التعاون الإسلامي بجدة، الدورة الثامنة، (المنعقدة ببروناي، ١٤١٤ه/١٩٩٣م)، قرار رقم ٧٠ بشأن الأخذ بالرخصة وحكمه.
(٤) القول الشاذ وأثره في الفتيا، د.أحمد بن علي المباركي، ص (٧٧).
(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢١٤٤٦).
(٦) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٩٣/٦).
(٧) الحاوي في فقه الشافعي، للماوردي (٥٦٤/٩). والقول الشاذ وأثره في الفتيا، د. أحمد بن علي المباركي، ص (١٠٩).
(٨) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، ص (٢٥٢).

من ضوابط الأخذ بالأيسر من أقوال الفقهاء



الضابط الخامس: أن تطمئن نفس المترخِّص للأخذ بالرخصة[١]. وعلى هذا فلا ينبغي اعتماد قول كل قائل، وإنّما يعتمد على قول من يقول الصدق، وعلامة الصدق أن تطمئن به القلوب، وعلامة الكذب أن تحصل به الريبة[٢]، فإذا لم تطمئن النفس للرخصة، ولم ينشرح لها القلب، فليدعها الإنسان؛ وفي الحديث: (اِستَفتِ قَلبَك...، البرُّ ما اطمأنَّتْ إليه النفسُ واطمأنَّ إليه القلبُ، والإثمُ ما حاكَ في النفس وتردَّدَ في الصدر، وإنْ أفتاك الناسُ وأفتوك)[٣]. وجاء في حديث آخر: (والإثم ما حَاكَ في الصّدرِ، وكَرِهْتَ أن يَطَّلِعَ عليه الناس منك)[٤].

والمقصود بهذا الضابط الحثُّ على الورع وترك الشبهات، وإنما يكون الاستفتاء للقلب حينما يبيح المفتي شيئًا، فإذا لم يطمئن القلب السليم للإباحة فعليه الترك والامتناع، وأما إذا حرَّم المفتي شيئًا فيجب الامتناع، وليس له هنا استفتاء قلبه[٥].

ومثال ذلك: أن يفتي فقيهٌ بحلِّ ميتةٍ التبسَتْ بمذكّاة؛ لاحتمال أن تكونَ هي المذكّاة، فإذا استفتى المرءُ قلبه عَلِمَ أنه يحتمل أن تكون هي الميتة، وأنّ الاستبراءَ للدين لا يتحقّق إلا بتجنّب الجميع؛ فما لا يتم تركُ الحرام إلا بتركه فتركُه واجبٌ، وعندها لا ينشرح القلبُ الصحيح لتلك الفتوى؛ لاحتمال الوقوع في الحرام[٦].

وفي الختام:

فإنّ في تتبُّع الرخص الفقهية مخاطرَ عديدة، إذْ فيه اتّباعُ الهوى، وسبيلٌ إلى التحلّل من التكاليف، وتمردٌ على الشريعة، وخروجٌ عنها؛ ولهذا حذر منه العلماء.

وأما الأخذ بالأهون من أقوال الفقهاء دون تتبُّع لها، فلا مانع منه، ما دام الآخذُ به ملتزمًا بالضوابط الشرعية، التي بوجودها تُحفظ الشريعة من الفوضى واتّباع الهوى.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص (١١٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٠٠١)، والدَّارمِيُّ في مسنده (٢٥٧٥). من حديث وَابِصَةَ بن مَعبدٍ ﷺ، والحديث ليس على إطلاقه، قال الشنقيطي في تفسيره: «ولا شك أن المراد بهذا الحديث ونحوه الحث على الورع وترك الشبهات»، يُنظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي (٢٦٥/١٩).

(٤) أخرجه مسلم (٦٦٨٠)، من حديث النواس بن سمعان الأنصاري ﷺ.

(٥) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني (٢٠١/٢).

(٦) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٢٦٥/١٩).



تزكية

تربية المشاعر

د.ياسر بن مصطفى الشلبي (*)

مشاعر الإنسان جزء أصيل من تكوينه، ولها وظائف هامة في حياته فهي محرك أساس لسلوكه وتصرفاته، ومفتاح للدخول لشخصيته والتأثير فيه؛ لذا فإن تفعيلها بطريقة صحيحة تسهم في تحفيز الهمة، وحماية حياة الإنسان، فضلًا عن استواء الشخصية واستقرارها، أما إن أُهملت أو عوملت بطريقة خاطئة فستكون من أهم أسباب الاضطراب النفسي، والفشل في الحياة وتدميرها؛ فكم من شخص تحولت حياته إلى بؤس دائم نتيجة عدم ضبط مشاعره وردّات فعله؛ لذا ينبغي للمربي أن يراعي هذه المسألة ويعتني بها، والمقالة التي بين يدينا حول هذا الموضوع.

خلق الله تعالى الإنسان وأودع فيه المشاعر والأحاسيس، وجعلها من أهم محركات السلوك، حتى إن الطفل الذي لا يدرك في سنيِّه الأولى الأمور العقلية ومدلولاتها، يدرك إلى حدٍّ ما بعض العواطف ويتأثر بها.

لذا اهتمّ الإسلام بالمشاعر، ووجه برعايتها وإشباعها؛ حتى إنَّه عدَّها جزءًا أصيلًا في إيمان المرء لا يكتمل إلا به ولا ينمو إلا بنمائه؛ فالحب والبغض في الله أوثق عرى الإيمان.

والدارس للعلاقات الإنسانية يلحظ أنه لا تكاد تخلو علاقة من نوع من أنواع المشاعر التي تؤثر في استمرار تلك العلاقات وتوجيهها، كما أنها تلون حياة الإنسان بالفرح أو الحزن، والأمل والتفاؤل أو اليأس والإحباط، والحب أو الكراهية، ودون هذا التلون تصبح الحياة رتيبة مليلة.

فكلما اهتم المربي برعاية مشاعر المتربي وتنميتها؛ كان أنجح في تربيته، وأقدر على التأثير في تلقيه وتفاعله ونموه، والوصول به إلى الأهداف المرجوة، ونظرًا لهذه الأهمية يتناول هذا المقال دور المربي في بناء المشاعر وضبطها لدى المتربي.

(*) دكتوراه في التربية وعلم نفس الأسرة.

مفهوم المشاعر:

المشاعر: هي جملة من الأحاسيس تنتاب الإنسان، قد تكون مرغوبة أو غير مرغوبة، وتصاحبها تعبيرات جسدية متعددة، وتتفاوت فترة وجودها فقد تستمر لمدة لحظات، وقد تبقى أطول من ذلك لشهور أو سنين.

> **وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال، يوجب للقلب شعورًا وأحوالًا**
>
> ابن تيمية رحمه الله

علاقة المشاعر بالسلوك الإنساني:

تؤثر المشاعر في سلوك الإنسان وتوجهه، وتعبر عن شخصيته؛ فما نحمله من مشاعر ينعكس مباشرةً على كثير من خياراتنا وقراراتنا.

- هناك علاقةٌ تبادلية بين المشاعر والسلوك: فالسلوك الذي يصدر عن الإنسان يكمن خلفه مسببات ودوافع، وهذه الدوافع تهدف لإشباع إحدى حاجات الإنسان، وإشباع تلك الدوافع ينضبط بحدود الشرع الحنيف؛ فتتحول الأفكار مع الأيام إلى معتقدات وقيم راسخة، تترجم في نفس الإنسان إلى مشاعر، والمشاعر تَصنع وتولِّد السلوك.
- من خلال السلوكيات والانفعالات المصاحبة للمشاعر يستطيع الشخص التعبير عما في داخله وعن حاجاته، وتعتبر تلك الانفعالات الوسيلة التعبيرية الأساسية لدى الأطفال بالأخص في مرحلة الطفولة المبكرة.
- الانفعالات السلوكية هي مؤشرات على المشاعر؛ فمثلًا: منظر الوجه الضاحك يعبر عن مشاعر الفرح والسعادة والرضا، وتعبيس الوجه يعبر عن مشاعر الضيق والألم والحزن.
- وفي المقابل فإنَّ الأحداث والسلوكيات التي يتعرض لها الشخص وتدخل إليه عبر منافذ المعرفة (الحواس الخمس) وما يتبعها من شعور باللذة أو الألم تنعكس أيضًا على مشاعر الإنسان، وتؤثر على ردة فعله وسلوكه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال، يوجب للقلب شعورًا وأحوالًا»[١].

- للمشاعر دورٌ كبيرٌ في رسم علاقات الانسان الخارجية ومواقفه وسلوكه تجاه الآخرين.
- تمثِّل المشاعر المتفلِّتة التي تسيطر على صاحبها دون أن يسيطر هو عليها عائقًا كبيرًا أمام تقدُّمه، وتمنعه عن تحقيق أي إنجاز، وتوقعه في سلوكيات خاطئة تجعله يعيش في حالة من الندم وتأنيب الضمير، وهنا يأتي موضع النصيحة النبوية الثمينة: (لا تغضب)[٢].
- تلعب المشاعر دورًا مؤثرًا في تخفيف ثقل ومشقة المهام والواجبات والتكاليف؛ فالمشاعر الإيجابية تجاه سلوك معين ترفع الهمة وتزيد من الاستعداد لعمله دون ضجر أو ملل، وبالعكس لو فقدت تلك المشاعر الإيجابية؛ فقد تدفع الشخص إلى التهرب من القيام بالسلوك المكلف به أو تأديته بأداءٍ ضعيفٍ وصورة روتينية.
- المشاعر هي البوابة الذهبية والمدخل الرئيسي لتربية السلوك وتعديله، فالمشاعر بمثابة الوقود الذي يحرك عجلة السلوك ويحفزه، فما تشعر به النفوس تطلبه، لذا عني النبي ﷺ بتنمية مشاعر أصحابه ﷺ، فعَظَّم اللهَ تعالى في نفوسهم حتى أصبحت مرضاته غاية مطلبهم، وصوّر لهم الجنة بأنَّ فيها (ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[٣] فاشتاقت لها نفوسهم وعملوا من الأعمال ما يُبلِّغهم إياها.

> **المشاعر هي البوابة الذهبية والمدخل الرئيسي لتربية السلوك وتعديله، فالمشاعر بمثابة الوقود الذي يحرك عجلة السلوك ويحفزه، فما تشعر به النفوس تطلبه**

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية (٢/ ٩٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦١١٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٢٥).

الأدوار الأساسية للمربي تجاه تربية المشاعر

- **الاستعداد التربوي باستشعار الأهمية وزيادة المعرفة والوعي**
- **تمثل دور القدوة بالانضباط واحترام مشاعر الآخرين وتقديم المعاملة المثالية**
- **بناء مشاعر المتربين بملاحظتها وإشباعها وحمايتها وتنميتها وتدعيمها بالقيم**

وعلّم الإسلام أتباعه ضبط مشاعرهم لما له من أثر كبير في ضبط سلوكياتهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

- استثارة المشاعر وتوظيفها قد تُحدث تغييرًا في السلوك أسرع من المنطق والتفكير، وإجادة المربي لفن توظيف المشاعر بصورةٍ إيجابية محفزة وداعمة للاستقرار النفسي يعدُّ من ركائز صناعة النفوس العظيمة وتوجيهها نحو السلوك السوي، وقد حفلت نصوص الكتاب والسنة بالكثير من الخطاب المحرك للمشاعر الحامل على الاستجابة لما يُطلب من النّاس والارتداع عمّا يُزجرون عنه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التّوبة: ٢٤].

- وهناك نصوص كثيرة توضح أثر المشاعر على السلوك كالفرح والحزن والغضب والطمأنينة والخوف، منها:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] قال ابن كثير ﷺ: «كادت من شدة وَجْدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أن الله ثبتها وصبرها»[١].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فعلم الإسلام أتباعه ضبط مشاعرهم لما له من أثر كبير في ضبط سلوكياتهم.

قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [القصص: ٢٣] قال عكرمة: «ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكرًا والحزن صبرًا»[٢].

عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان)[٣].

وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: (لا طلاق ولا عتاق في إغلاق)[٤]، فمِن رحمة الله أنه جعل الطلاق لا يقع في حالة الغضب الشديد الذي يغلق على صاحبه.

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢٠١/٦).
(٢) معالم التنزيل، للبغوي (٤٠/٨).
(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٧٣٩)، ومسلم (١٧١٧) واللفظ له.
(٤) أخرجه أحمد (٢٦٤٠٣)، والحاكم (٢٨٠٢) وقال: صحيح على شرط مسلم.

> دور المربي لا يقف عند إقامة علاقات اجتماعية جيدة مع المتربي ومؤانسته فحسب؛ لكنه يتعدى ذلك إلى العمل على بناء مشاعره، وتعويده على ترجمتها في سلوكيات إيجابية تعود عليه وعلى مَن حوله بالنفع

الأدوار الأساسية للمربي تجاه تربية المشاعر:

دور المربي لا يقف عند إقامة علاقات اجتماعية جيدة مع المتربي ومؤانسته فحسب؛ لكنه يتعدى ذلك إلى العمل على بناء مشاعره، وتعويده على ترجمتها في سلوكيات إيجابية تعود عليه وعلى من حوله بالنفع، ومن ذلك ما يلي:

أولًا: الاستعداد التربوي:

وذلك بأن يستشعر أهمية دوره وغايته، ويرفع من وعيه بمفهوم المشاعر والعوامل المؤثرة فيها وأساليب تربيتها وضبطها، مع الإلمام بالمعارف والعلوم التي تُساعده على فهم مشاعر المتربي.

ثانيا: القدوة:

فالمربي محط أنظار المتربي، وطريقة تعامله مع مشاعره الإيجابية كالفرح والسعادة، أو السلبية كالقلق والاضطراب، تنعكس في مشاعر المتربي، ومنه يتعلم أساليب التعبير عنها، ويقلدها ويعبر عنها بالطريقة نفسها دون وعي.

ومن الجوانب المنوطة بالمربي في هذه المسألة:

أ. ضبط المربي لانفعالاته المعبرة عن مشاعره، فعندما يشاهد المتربي طمأنينة مربيه في التعامل مع موقف ما يشعر تجاهه بالراحة، ولو واجه موقفًا مشابهًا مستقبلًا فإن هذا الشعور يصاحبه ويتفاعل معه كتفاعل قدوته، وعلى النقيض كما هو في المثال المشهور؛ فإن شعور الأم بالخوف من الحشرات وصراخها ينعكس على الأبناء بالطريقة نفسها، فينتقل إليهم القلق تبعًا لذلك، كما أن الحديث مع المتربي بصورة انفعالية شديدة اللهجة بصفة متكررة تجعله يكتسب هذه الطريقة في التعبير عن مشاعره.

ب. إبداء المربي لبعض مشاعره والتعبير عنها أمام المتربين: فقد كان النبي ﷺ يُظهر مشاعره لأصحابه ويعبر عنها، يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه)[(١)]، وفي قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور، ويقول: (أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك)[(٢)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: (زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ)[(٣)].

ج. احترام مشاعر الأخرين أمام المتربي: فالمربي الذي يراعي مشاعر الآخرين ويتعامل معهم بلطف على مرأى ومسمع من المتربي يزرع محبته في قلبه، ويشجعه على التخلّق بالخلق نفسه، أما المربي الذي يستخف بمشاعر الآخرين ويتسلط عليهم فإنه يزرع في نفس المتربي مشاعر الضغينة والكره، ويزرع في نفسه احتقار الآخرين، ويدفعه ذلك للبحث عن أخطائهم والاستخفاف بمشاعرهم.

د. استثمار المربي مشاعره في التوجيه التربوي والتعامل مع المتربي: وقد وجه الخطاب القرآني الرسولَ ﷺ لاستثمار العاطفة في تبليغ الرسالة وكسب اهتمام المجموعة بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

> المربي الذي يراعي مشاعر الآخرين ويتعامل معهم بلطف على مرأى ومسمع من المتربي يزرع محبته في قلبه، ويشجِّعُه على التخلّق بالخلق نفسه

ثالثًا: بناء المشاعر:

ومن ذلك:

- اتخاذ التدابير التي تتيح للطفل نموًا طبيعيًا لمشاعره، والمحافظة على سلامته الجسدية والنفسية.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).
(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٦٧٧)، ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ له.
(٣) أخرجه مسلم (٩٧٦).

- حماية الطفل من مظاهر الانتهاك والاستغلال وسوء المعاملة، أو الشعور بالذل والخضوع.
- إشعار المتربي بأنه متقبَّل من محيطه، مما يشعره بالاحترام والاهتمام، ويُسهم في تكوين مشاعره الإيجابية وردّات فعله تجاه نفسه والآخرين.
- غمر المتربي بدفء المشاعر، وإشباع حاجته من كلمات الحب والتقدير والفخر به، وأن وجوده في حياة والديه مصدر لسعادتهما وأنه جدير بحبهما؛ فهذا يشعره بالأمن والطمأنينة، ويساعده على ضبط انفعالاته وتكوين علاقات إيجابية مع الآخرين، وفي المقابل فإن إهمال المشاعر والتعبير عنها سبب لتكوين مشاعر الكره أو الجفاف العاطفي لدى المتربين، ومما تجدر الإشارة إليه أن توفير احتياجات المتربي المادية لا تغني عن إبداء المشاعر؛ فهي جزء من حقوقه، ولا تعني له شيئًا إن لم تقترن بما ينمي مشاعره وأحاسيسه.
- ملاحظة مشاعر المتربي وتفقدها، وقراءة تعابير وجهه وردود فعله، والاطمئنان عليه بأسلوب يشعره بالاهتمام (يبدو لي أنك منزعج، هل أستطيع مساعدتك) وهذا يساعده على إخراج ما في صدره من مشاعر والتعبير عنها، لا بأسلوب التحقيق (يبدو أنك ارتكبت خطئًا، لماذا تبدو منزعجًا؟!) مما يُدخل الخوف والريبة على نفسه ويجعله موضع تُهمة.

فعن مالك بن الحويرث ﷺ قال: أتينا النبي ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظنَّ أنا اشتهينا أهلينا، فسألنا عمّن تركنا في أهلينا؟ فأخبرناه -وكان رفيقًا رحيمًا- فقال: (ارجعوا إلى أهليكم فعلّموهم ومُرُوهم، وصلُّوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حَضَرت الصلاة، فليُؤذّن لكم أحدُكم، وليؤمكم أكبركم)[١].

- تعميق عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر لدى المتربي، ومن ذلك مفهوم الرضا بما قسم الله تعالى للعبد، وأن الخيرة فيما اختاره الله للعبد، وهذا مما يساعد المتربي على الشعور بالطمأنينة، قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[٢].

> **توفير احتياجات المتربي المادية لا تغني عن إبداء المشاعر؛ فهي جزء من حقوقه، ولا تعني له شيئًا إن لم تقترن بما ينمي مشاعره وأحاسيسه**

- تدريب المتربي على فهم مشاعره وعواطفه الإيجابية والسلبية، وتأثيرها على سلوكه وحالته النفسية والاجتماعية.
- تعليمه أسماء المشاعر والأفكار المرتبطة بها، والسلوكيات والانفعالات الإيجابية للتعبير عنها والتعامل معها: عن أنس ﷺ أن نبي الله ﷺ قال: (لا عدوى ولا طِيَرَة، ويعجبني الفأل الصالح، والفأل الصالح الكلمة الحسنة)[٣].

وعن أم سلمة ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من عبدٍ تُصيبه مصيبة فيقول: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجُرْني في مُصيبتي واخلفني خيرًا منها، إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرًا منها)[٤].

- نهي المتربي عن الانفعالات والسلوكيات السلبية للتعبير عن مشاعره: قال النبي ﷺ: (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام)[٥].

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط...)[٦].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٧٨٥)، ومسلم (٦٧٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).
(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٤٢٤)، ومسلم (٢٢٢٤).
(٤) أخرجه مسلم (٩١٨).
(٥) أخرجه البخاري (٥٧١٨).
(٦) أخرجه البخاري (٢٧٣٠).

- توجيه المتربي لتقبل المشاعر السلبية التي تنتابه (الخوف – الحزن – الألم): فمن المستحيل تجنُّب تلك المشاعر أو محاولة إبعادها عن الفرد، والواجب على المربي أن يُعلِّم المتربي كيفية التأقلم مع تلك المشاعر وتوجيهها لمساعدته على البقاء والانتباه للمشكلات التي تحيط به؛ فالمشاعر السلبية يمكن أن تكون علامة مهمة، ودالة على أنه ثمة ما يتطلب الانتباه والمعالجة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠].

- تعديل وتصحيح الأفكار الخاطئة المتعلقة بالأخطار والتوقعات البعيدة عن الواقع، ومساعدة المتربي على التخلص من المشاعر السلبية المرتبطة بها، وتوعيته بالانفعالات والسلوكيات الخاطئة في التعبير عن المشاعر، قال رسول الله ﷺ مصححًا مفهوم الشدة: (ليس الشديدُ بالصُّرَعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[١]، فقد جعله وصفًا لمن يتحكم بمشاعره ويضبطها ويحسن إدارتها، ولم يقل النبي ﷺ: الشديد من لا يغضب فمن طبيعة النفسِ البشرية الغضب «فلا يتأتّى النهيُ عنه، لأنّه أمر طبيعيٌّ لا يزول من الجِبِلّة البشرية»[٢].

- إعطاء الفرصة للمتربي للتعبير عن مشاعره وتفريغها، سواء كانت إيجابية أو سلبية، والإنصات له والاهتمام بما يقول ويشعر، وتدريبه على تنفيس انفعالاته بشكل صحيح من خلال الاتصال بالله تعالى وبث همومه إليه، أو ممارسة بعض أنواع الرياضة، أو الحوار، أو الكتابة والرسم، وغيرها من الوسائل المعرفية والسلوكية التي تساعده على استعادة توازنه النفسي والانفعالي والتحكم بمشاعره على المدى البعيد.

- الوقوف مع المتربي في أزماته، والإصغاء له عندما يبدي مشاعره تجاهها، وإظهار الاعتراف بها والتعاطف معه (أتفهَّم أنَّك تشعر بالإحباط – فعلًا هذا الأمر مخيف – معك حقٌّ أن تشعر بالانزعاج من ...)، وإعانته على التفكير بحلِّ مشكلاته وتجاوزها، كل هذا يترك أثرًا كبيرًا في نفس المتربي ويكسبه الشعور بالأمان.

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٨-٦٩] فأمر الله موسى ﷺ بعدم الخوف وعلمه ما يذهب عنه الخوف.

- إشعار المتربي بأن مربيه سند له بعد الله سبحانه تعالى، يمكنه الوثوق به في تأمين الحماية له والدفاع عنه إن تعرض له أحد بأذى أو انتقص منه أو وجه الإساءة إليه.

- النصيحة التربوية: وهي التي يصاحبها إشعار المتربي بالحب والاحترام حتى عندما يبدر منه سلوك غير مرغوب، وأن يوجه النقد للفعل وليس لذاته التي يجب أن لا تمسَّ بسوء، وأن يُشعره بالحنان والرحمة أثناء نصحه.

قال الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، فهذا عتاب من الله تعالى لخير الخلق ﷺ ابتدأه تعالى بإخباره بالعفو وتطييب الخاطر وتهيئة المشاعر قبل العتاب رحمةً به وإكرامًا له وتسكينًا لقلبه[٣].

الجوانب المتعلقة بتربية مشاعر المتربي نحو الآخرين:

- تعويد المتربي وتعليمه أن طريقة التعبير عن المشاعر تنعكس على المناخ الاجتماعي له؛ فالشخص حاد المزاج يستثير من حوله ويشعرهم بالانزعاج، والشخص المتعاطف والودود يشعر الآخرين بالراحة والطمأنينة.

قال النبي ﷺ: (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢٦٠٩).
(٢) فتح الباري، لابن حجر (١٠/٥٢٠)، وتمام الكلام قول الإمام الخطابي: معنى قوله (لا تغضب): اجتناب أسباب الغضب وألا تتعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه لأنه أمر طبيعي لا يزول من الجِبِلّة.
(٣) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٣/ ١٩٠)، بتصرف.



عضوًا، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)[1].

- إكساب المتربي مهارة تفهم مشاعر وعواطف الآخرين وقراءتها واحترامها وعدم الاستخفاف بها، وكيفية التعامل معهم فيما يخص ردود أفعالهم التي يعبرون بها عن مشاعرهم.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)[2].

- تعليم المتربي وسائل تحريك مشاعر الآخرين نحو الهدف والرسالة التي يريد إيصالها لهم.
- تعويد المتربي على إبداء المشاعر والعواطف للآخرين بطريقة إيجابية: فقد حث النبي ﷺ على إخبار الآخرين بعاطفة الحب نحوهم، فعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلًا كان عند النبي ﷺ فمرّ به رجل فقال: يا رسول الله، إني لأحب هذا. فقال له النبي ﷺ: (أَعْلَمتَه؟ قال: لا. قال: أعلِمه، قال: فلحقه، فقال: إني أحبُك في الله. فقال: أحبَّك الذي أحببتني له)[3].

> التربية الجافّة القائمةُ على التسلُّط وتجاهُل مشاعر المتربي وكبتها، هي تربية فاسدة تُقسِّي مشاعر المتربين وتجمّد عواطفهم

- تعويد المتربي على الاندماج في المجتمع والتواصل مع محيطه وبيئته من الأرحام والأقارب والجيران، وأداء الصلاة مع الجماعة والمساهمة في الأعمال التطوعية مما يكسبه الشعور بقوة الجماعة وعواطفها المشتركة[4].

أخطاء تربوية مدمرة لمشاعر المتربي:

من خلال ما سبق، تمت الإشارة عرضًا لبعض الأخطاء في التعامل مع مشاعر المتربين، وفيما يلي تفصيل لأهم الأخطاء التربوية التي تؤثر على نفسية المتربي، وقد تسبب فيها دمارًا يترك بصمته على شخصيته:

- الاستخفاف بمشاعر المتربي: فحين تُقمع المشاعر بطريقة غير مناسبة، كأن يُستخف

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).
(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٠١١).
(٤) التربية الإسلامية، لعبد الرحمن النحلاوي ص (٣٥).



بخوفه من زمانٍ أو مكانٍ ما، أو لا تُقدَّر مشاعره، أو يُعنَّف عند إظهار الابتهاج لحدوث أمر سار بالنسبة له نراه تافهًا أو سخيفًا، فإن ذلك يرسخ في ذهنه أن التعبير عن مشاعره نوع من الضعف أو سخافة العقل والتصرفات.

ومما يزيد الطين بِلّة أن يعمد المربي إلى إعادة رواية شعور المتربي وردّات فعله أمام الآخرين من باب الطرفة أو الاستهزاء، ووسمه ببعض الألقاب السلبية (خواف –جبان- أهبل- مهرج..)، مما يولد مشاعر الضيق والخجل وامتهان الكرامة، فيتعود على كبت انفعالاته وعدم إظهار مشاعره، ويصبح ضعيف القدرة على التعبير عن مشاعره للآخرين، وتتراكم لديه مشاعر الكُره والبغضاء والحقد.

- العبث بمشاعر المتربي: كأن يعمد المربي إلى المزاح مع المتربي بأداء سلوكيات للحصول على ردود أفعال يراها ظريفة أو لطيفة، لكنها تسبب الانزعاج أو عدم الراحة للمتربي، والأشد من ذلك توثيقها أو نشرها على وسائل التواصل، والاستعراض بمشاعره السلبية أمام الآخرين دون احترام لخصوصيته وحساسية مشاعره.
- تخويف المتربي من أمور قد تكون سخيفةٌ في نظر الكبار، لكنها جادّةٌ بالنسبة للصغار، فالضحك عليهم وإغاظتهم لا يساعد في بناء مشاعر إيجابية لديهم، ولا يفيد في التغلب على تلك المخاوف بل يزيد من حجمها.
- مقارنة المتربي بغيره لحثه على الاستجابة للأوامر والتحسن من تصرفاته، فلكل شخص قدراتُه وإمكانياتُه وظروفُه وشخصيتُه الخاصةُ به وخصائصه المختلفة، ومقارنته بغيره تكوِّن لديه مشاعر الحقد تجاه الآخرين والإحباط تجاه نفسه.
- عدم العدل في التعامل مع المتربين، مما يولِّد لديهم مشاعر الغيرة والحسد.
- غرس مشاعر الضعف في نفس المتربي من خلال ترداد بعض العبارات التي تصف حاله بغض النظر عن واقعيتها نحو: (مسكين – ضعيف – مظلوم – الكل يتعدى على حقوقه).
- التربية الجافة: القائمة على التسلط وتجاهل مشاعر المتربي وكبتها، هي تربية فاسدة تُقسي مشاعر المتربين وتجمد عواطفهم، ونجاحُها في بعض الأحيان هو نجاح مؤقت، لكنها تؤجِّج مشاعر الحقد والغل لدى المتربي، وتوجه مشاعره نحو الشر.
- الغلو في إبداء المشاعر للمتربي: سواء بالخروج عن الحد الطبيعي في إظهار المشاعر والتودد والقرب منه و(تدليله) حبًا فيه أو لكسب ثقته واستمالته، أو تكلف هذه المشاعر، مما ينتج صورًا متنوعة من السلبيات التي تصيب المتربي والمربي أيضًا، فقد يحصل لدى المتربي نوع من التعلق العاطفي يضعف شخصيته ويفسد عليه قلبه ومشاعره، كما أنه ينمي فيه صفات الأنانية وحب الذات، والتواكل.

وختامًا:

فإنَّ الإنسانَ هو حجر الأساس في العمل التربوي، والإنسان مجموعة من عواطف، فجهل المربي بالتعامل مع هذه المشاعر أو غفلته عنها له نتائج خطيرة على الفرد والمجتمع، من أهمها فشل المتربي في حياته، أو فشل العملية التربوية برمَّتها، مما يوجب على المربين والمؤسسات التربوية العناية بهذه المسألة، وتقديم الحلول الناجعة للتعامل معها دون إفراط أو تفريط؛ للوصول للأهداف التربوية المرجوة، وتحقيق استخلاف الإنسان في الأرض وعمارتها.



كما تكونوا يولَّى عليكم .. فقه التغيير بين الحاكم والمحكوم

أ. فايز الصلاح(*)

صلاح المجتمعات ضرورة لا تستقيم حياة الناس دونها، ولا يستطيع المرء أن يحقق استخلاف الله له في الأرض إلا في مجتمع صالح يعينه على ذلك. لذا فإن المطلوب ليس مجرد الصلاح الشخصي، وإنما المطلوب معه الإصلاح: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ومن هنا كانت إقامة المجتمع المسلم ودولته، والقيام بالنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم واجبات المسلمين، وفي هذا المقال حديث عن أحد أهم أجزاء المجتمع ألا وهم الرعية (الشعب)، وأثرهم في الإصلاح.

مدخل:

تتأثر المجتمعات في توجهاتها وسلوكها بالعديد من العوامل، من أهمها: شخصية الحكام القائمين عليها، لما في أيديهم من سلطة وقرار، وتبعية الناس لهم، فيكون أثرهم كبيرًا وعامًا، فإذا فسد هؤلاء الحكام كان ضررهم عظيمًا، لكن حصر فساد المجتمعات وتراجع الخير وانحسار الصلاح بالحكام وإخلاء مسؤولية المحكومين عنه نوع من التعامي عن رؤية الصورة كاملة، وتنصُّل من المسؤولية.

ولما كانت النفوسُ المظلومة تشتهي الحديث عن الظالمين، من حكامٍ مجرمين، أو أعداء متآمرين، وتنسى ظلمها لها ولغيرها؛ حسُن تذكيرها بنصيبها من تلك المسؤولية التي ستحاسب عليها وتُسأل عنها، قال تعالى لِخِيَارِ الخَلق بعد النبيين صحابةِ النبي ﷺ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، بل قال مخاطبًا نبيه وصفيه محمدًا ﷺ: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال مخاطبًا الخلق كلهم: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: ٣٠].

والمقصود بالسيئة في الآيات السابقة: ما يسوء الإنسان من المصائب، فكلُّ مصيبةٍ وسيئة، صغيرةً

(*) ماجستير في الشريعة، باحث متخصص في الدراسات الشرعية، عضو مجلس الإفتاء في المجلس الإسلامي السوري.

كانت أو كبيرةً، من فقرٍ وجوعٍ وذلّ وظلمٍ وتشريدٍ وسجونٍ وقهرٍ واحتلالٍ، وغير ذلك حتى ما يكون من الفساد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والبيئي، إنما هو بسبب من الناس حكامًا ومحكومين، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وفي هذا المقال سنخصص الحديث عن المسؤولية الملقاة على الشعوب وعامة الناس؛ تنبيهًا على أثرهم الكبير والخطير على الدولة والمجتمع، وقدراتهم في الإصلاح والتغيير.

كلام أهل العلم حول كلمة «كما تكونوا يولَّى عليكم»:

شاع تداول جملة «كما تكونوا يولَّى عليكم»، وهي حكمةٌ سلطانيةٌ اجتماعيةٌ ثابتة بالاستقراء التاريخي؛ فالملوكُ والرؤساءُ والأمراءُ والمديرون صورةٌ وانعكاسٌ لما عليه المجتمع، وهذه الجملة لها علاقة بسنة كونية غفل عنها كثيرٌ من المسلمين فضلًا عن الكافرين، وهي: «أن ما أصابنا إنما هو بسبب منا؛ ذنوبنا وتقصيرنا في جنب الله»، وقد ذكرها أهل العلم وتواتر كلامهم فيها قديمًا وحديثًا، منذ زمن الصحابة وتابعيهم ﷺ أجمعين.

> **جملة «كما تكونوا يولَّى عليكم»، حكمةٌ سلطانيةٌ اجتماعيةٌ ثابتة بالاستقراء التاريخي؛ فالملوكُ والرؤساءُ والأمراءُ والمديرون صورةٌ وانعكاسٌ لما عليه المجتمع.**

ومن ذلك: ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، فقد ورد في أحد تفسيراتها:

١. قال ابن عبّاس ﷺ في تفسير هذه الآية: «هو أنّ الله تعالى إذا أراد بقوم خيرًا ولّى أمرهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شرًّا ولّى أمرهم شرارهم»(١).

٢. وعن منصور بن أبي الأسود، قال: سألت الأعمش (المتوفى: ١٤٧هـ) عن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾، ما سمعتَهم يقولون فيه؟ قال: «سمعتُهم يقولون إذا فسد الناس أُمِّرَ عليهم شرارُهم»(٢).

٣. وقال أبو الليث السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ): «ويقال: نسلّطُ بعض الظالمين بعضًا فيهلكه ويذلّه. وهذا كلامٌ لتهديد الظالم لكي يمتنع عن ظلمه، لأنه لو لم يمتنع يسلط الله عليه ظالمًا آخر، ويدخل في الآية جميع من يظلم، ومن ظلم في رعيته، أو التاجر يظلم الناس في تجارته، أو السارق وغيرهم»(٣).

٤. وقال الإمام أبو بكر الطرطوشي المالكي (المتوفى: ٥٢٠هـ): «لم أزل أسمع الناس يقولون: «أعمالُكم عمّالُكم، كما تكونوا يولَّى عليكم»، إلى أن ظفرتُ بهذا المعنى في القرآن؛ قال الله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا} [الأنعام: ١٢٩]، وكان يقال: ما أنكرتَ من زمانك فإنما أفسدَه عليك عملُك»(٤).

٥. وقال فخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ): «الآية تدلُّ على أنَّ الرعية متى كانوا ظالمين فالله تعالى يسلّط عليهم ظالمًا مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم»(٥).

٦. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ): «وقد ذكرت في غير هذا الموضع أن مصير الأمر إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة والأمراء؛ ليس لنقص فيهم فقط، بل لنقص في الراعي والرعية جميعًا؛ فإنه «كما تكونوا يولّى عليكم» وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾»(٦).

٧. وممن بيّن هذه القاعدة العلامة ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) في كتابه الماتع «مفتاح دار السعادة»، حيث استفاض في الكلام على حكمة الله في أفعاله وأقواله، قال رحمه الله: «وتأمّل حكمته تعالى في أنْ جعل ملوك العباد وأمراءَهم

(١) موسوعة التفسير بالمأثور، لمساعد الطيار (٨/ ٦٠٨).
(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٥٠).
(٣) بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ٤٨٢).
(٤) سراج الملوك، للطرطوشي ص (٩٤).
(٥) مفاتيح الغيب، للرازي (١٣/ ١٥٠).
(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣٥/ ٢٠).

وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأنَّ أعمالهم ظهرت في صور وُلاتهم وملوكهم؛ فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عَدلوا عَدلوا عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوقَ الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أَخَذت منهم الملوك ما لا يستحقونه وضَربت عليهم المكوس والوظائف، وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة؛ فعُمَّالهم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في الحكمة الإلهية أن يولِّ على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم.

ولما كان الصدر الأول خيارَ القرون وأبرَّها كانت ولاتهم كذلك، فلما شابوا شابت لهم الولاة، فحكمة الله تأبى أن يولي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز، فضلًا عن مثل أبي بكر وعمر، بل ولاتنا على قدرنا، وولاة من قبلنا على قدرهم، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها، ومن له فطنة إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر، ظاهرة وباطنة فيه، كما في الخلق والأمر سواء»[١].

٨. وقال العلامة السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ): «كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالمًا مثله، يؤزه إلى الشر ويحثه عليه، ويزهده في الخير وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها، البليغ خطرها.

والذنب ذنب الظالم، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ومن ذلك، أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ومنْعهم الحقوق الواجبة، ولَّى عليهم ظلمة، يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين .

كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف»[٢].

> **إذا كان الحكّامُ أكثرَ امتلاكًا للقوة الخشنة في التغيير، فإنَّ الشعوب أملك للقوة الناعمة في التغيير، وهذه القوة تبدأ من الفرد في عقيدته وعبادته وسلوكه ومعاملاته**

تأثير المحكومين في التغيير:

إذا كان الحكّامُ أكثرَ امتلاكًا للقوة الخشنة في التغيير، فإنَّ الشعوب أملك للقوة الناعمة في التغيير، وهذه القوة تبدأ من الفرد في عقيدته وعبادته وسلوكه ومعاملاته في أسرته وجيرانه وفي مسجده وفي بلده، حتى يعم العالم كله، والعالم دول، والدول قرى ومدن، وتلك جماعات، حتى تعود إلى أسها وأساسها وهم الأفراد.

فالشعوب تملك مساحات كبيرة للتغيير، لكنها - للأسف - لا تعمل للتغيير في ساحتها المقدور عليها، وقد يتعذر بعضهم بالحكام الطغاة في منع التغيير! فيقال له: نتكلم عن المساحات المقدور عليها، وهناك قاعدة تقول: «الميسور لا يسقط بالمعسور»، فنفعل الميسور وبذلك نوسع مساحة الخير، فييسر الله لنا المعسور، ولكن أن نترك ساحة الميسور بحجة المعسور، أو أن نقتحم ساحة المعسور مع تركنا للميسور؛ فهذا يقدح في العقل وفي الإخلاص، فلا المعسور حققنا، ولا للميسور فعلنا .

وإذا كنا نُحمّل الحكّام تبعة الأنظمة المخالفة للشرع وفرضها على الناس، ولكن ما بال الأنظمة الشرعية والمباحة غير المخالفة التي تحقق المصالح وتدفع المفاسد، يخالفها العديد من الناس ولا يلتزمون بها؟![٣].

فانظر على سبيل المثال نظام المرور، ثم انظر إلى أخلاقيات الناس وآدابها في التعامل مع هذا

---

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/ ٧٢١-٧٢٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (١/ ٢٧٣).

(٣) بل يوجد فريق من الناس يقول: لا ألتزم بالإسلام إلا إن ظهرت دولة الإسلام، أو التزم الحكام بأحكام الشريعة. وجهل هؤلاء أن قيامهم بأمور الدين واجب عليهم، ومسؤولون عن عمله ومحاسبون على تركه، بغض النظر عن غيرهم من الحكام والمحكومين، وأن وقوع غيرهم في الحرام وترك الواجبات ليس مبررًا لهم ليفعلوا ذلك، لما أخبر النبي ﷺ عن فساد حكام آخر الزمان سأله الصحابة الكرام: (يا رسولَ الله فما تأمُرنا؟ قال: تؤدُّون الحقَّ الذي عليكم، وتسألونَ اللهَ الذي لكم) أخرجه البخاري (٣٦٠٣).

النظام، ستجدُ عجبًا، ويضيق صدرك عندما تسوق في شوارع المسلمين في كثير من البلدان الإسلامية، ولولا وجود المخالفات والعقوبات لوجدت العجب العجاب، وقس على ذلك باقي معاملات الناس.

بل من عجيب الأمور أن يكون للرعية أثر سلبي على ولاة الأمور، فإنه لما تولّى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ما استطاع أن يُغير كثيرًا من الأمور؛ خشية نفرة الرعية، وممن أردَته رعيته إلى القاع هرقل عظيم الروم، عندما أراد لهم الإسلام حاصوا كما تحوص الحُمُر ورضخ لرغباتهم، بعد أن أضله الله على علم.

ومثل ذلك النجاشي لما أسلم أخفى إيمانه خشية الرعية، وفي العصر الحديث كم رئيس ووزير وصل إلى القمة ولم يقدر على التغيير.

فالشعوب لهم مساحة كبرى في إصلاح الحال أو إفساده، ولهم الأثر الكبير في النقص والزيادة.

وإن البعض قد عطّل بشعار «إصلاح الحكومات أولا» كثيرًا من الإصلاح الشعبي، وزرع اليأس والأشواك أمام محاولات الإصلاح الإداري والاجتماعي والاقتصادي والتعليمي، مع أننا بحاجة ماسّة إلى إصلاحات كبيرة في هذه المجالات.

وإنَّ كثيرًا من إفساد الحكام وطغيانهم لن يجد صداه في الأمة، حتى تكون القابلية لذلك، فلولا القابلية لما كان هناك أثر، فالشعوب عندما تكون كالإسفنجة تمتص كل ما تلامس ستكون مثقلة بما تمتص، بخلاف الصخرة الصلدة التي تتكسر عليها رماح الفساد والإفساد، وقد بين الله ذلك في فرعون وقومه عندما قال: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

من الإصلاح المنوط بالشعوب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من أعظم خصائص هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحسبة على المخالف، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وإن من أنواع الحسبة: الحسبة على الحكام، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؛ فالسكوت على الظالم من أسباب تعجيل العقوبات، فعن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ الناس إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يديه أوشكَ أن يعمهم الله بعقاب منه)[١]، وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (والذي نفسِي بيده لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم)[٢].

وقد أمر النبي ﷺ بمناصحة ولاة الأمر عندما قال: (الدِّينُ النصيحة، قلنا: لِمَنْ يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم)[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: (إنّ الله كَرِه لكم ثلاثًا، ورَضي لكم ثلاثًا: رضي لكم أن تعبدوه ولا تشركوا شيئًا، وأن تعتصموا بحبلِ الله جميعًا، وأن تنصحوا لولاةِ الأمر، وكره لكم قِيلَ وقَال، وإضاعةَ المال، وكثرةَ السؤال)[٤].

> ترك الاحتساب على ظلم الحاكم وتقصير الأمة في محاسبة الحكام بمناصحتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر سبب في زيادة الظلم والاستبداد والضلال في المجتمع

بل إن الإسلام قد جعل الاحتساب على الحاكم من أفضل الجهاد، سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ: أي الجهاد أفضل؟ قال: (كلمةُ حقٍّ عند سلطانٍ جائر)[٥]، وجعل من يُقتل في ذلك من سادة الشهداء، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (سيِّد الشهداء حمزة، ورجلٌ قامَ إلى إمامٍ جائرٍ، فأمره ونهاه فقتله)[٦].

وإن ترك الاحتساب على ظلم الحاكم وتقصير الأمة في محاسبة الحكام بمناصحتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر سبب في زيادة الظلم والاستبداد والضلال في المجتمع، ويُفضي إلى جرأة

(١) أخرجه أحمد (٥/١ رقم ١٦) بإسناد صحيح.
(٢) أخرجه أحمد (٣٨٨/٥، رقم ٢٣٣٤٩)، والترمذي (٤٦٨/٤، رقم ٢١٦٩) وقال: حسن.
(٣) أخرجه مسلم (٧٤/١، رقم ٥٥).
(٤) أخرجه أحمد (٨٣٣٤).
(٥) أخرجه النسائي (٤٢٠٩).
(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٨٨٤).



أهل الباطل وضعف أهل الحق، مما يُؤذن بنزول غضب الله تعالى ومقته، روى الطبراني عن العرس بن عميرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله تعالى لا يُعذب العامَّة بعمل الخاصَّة حتى تعمل الخاصَّة بعمل تقدِر العامة أن تغيره، ولا تغيره، فذاك حين يأذن الله في هلاك العامة والخاصة)[1]. فهل يعني هذا أن الحكام معذورون أو لا لوم عليهم ولا مسؤولية؟!

أثر الحاكم في المحكومين وفي تغيير الواقع:

ليس معنى ما سبق أن الظالمين المتسلطين من حكام وغيرهم معذورون ولا لوم عليهم، بل هم محاسبون على أعمالهم، وهم مسؤولون عن رعيتهم وحسابهم عريضٌ وشديدٌ، ولن ينجيهم يوم القيامة إلا العدل.

ومما يدل على تأثير الحكام قول عثمان بن عفان رضي الله عنه: (إنَّ الله يَزَعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآن)[2].

قال ابن كثير: «أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع»[3].

قال سفيان الثوري: «صِنفان من الناس إذا صلُحا صلح الناس: القُرَّاء، والأمراء»[4].

وقال المناوي: «فبصلاحهما صلاحُ الناس، وبفسادهما فسادُ الناس، فالعالم يقتدي الناس به في أفعاله وأقواله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، والأمير يحمل الناس على ما يصلحهم أو يفسدهم، ولا يمكن مخالفته»[5].

ولا شك أنَّ في استقامة الحكام أثرًا في استقامة الشعوب، وفي فسادِهم فسادًا لهم، ففي صحيح البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه في حديثه للأحْمَسيَّة لما سألته: ما بقاؤُنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: «بقاؤكُم عليه ما استقامَت بكم أئمتكم»[6].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنَّ الناسَ لم يزالوا مُستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم»[7].

وذنوب الولاة لها أثر في الأمة، ففي الحديث: «يا معشر المهاجرين! خمسٌ إذا ابتليتم بهن وأعوذ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٨/١٧، رقم٣٤٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٦٨): «رجاله ثقات».
(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١/ ١١٨) بسنده عن مالك أنَّ عثمان.. بنحوه. والخطيب في التاريخ (٤/ ٣٢٩) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ١١١).
(٤) المجالسة وجواهر العلم، للدينوري (٢/ ٣٠٨).
(٥) فيض القدير، للمناوي (٤/ ٢٠٩).
(٦) أخرجه البخاري (٥/ ٤١ رقم ٣٨٣٤).
(٧) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٧٢ رقم ٣٨٧٤).



بالله أن تُدركوهن... وفيه: وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيَّروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسَهم بينهم»(١).

قال ابن القيم: «وأصل فساد العالم إنّما هو من اختلاف الملوك والخلفاء. ولهذا لم يطمع أعداء الإسلام فيه في زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدّد ملوك المسلمين واختلافهم وانفراد كل منهم ببلاد، وطلب بعضهم العلوّ على بعض»(٢).

ليس في الحديث عن مسؤولية الشعوب عن الفساد أن الحكام معذورون، بل مسؤوليتهم أشدّ وحسابهم أكبر

وفي الختام:

ينبغي أن نعلم علم اليقين أنَّ أمور الخلق كلّها بيد الله رب العالمين، بيده الخير وإليه ترجع الأمور، وهو على كل شيء قدير، وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ تغيير أمور الناس من الشر إلى الخير وبالعكس هو بيد الله من بعد أن يغير الناس ما بأنفسهم، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ولا يمكن السير في طريق التغيير المنشود إلا من خلال التشخيص الصحيح للواقع بإعمال التحليل الشرعي الذي جاء في القرآن، وذلك بمعرفة سنن الله في خلقه، والتي دلت على أن ما أصابنا إنما هو بأيدينا، وليس بأيدي أعدائنا.

وتغيير الواقع ليس مقصورًا على جماعةٍ دون جماعة، بل هو مسؤولية الجميع حكامًا ومحكومين، كلٌّ يقوم بواجبه وبما يقدر عليه، فإن الله سبحانه لم يخص التغيير بل عمم وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والعلاقةُ بين الحاكم والمحكوم علاقةُ تأثرٍ وتأثير، والنقصُ في الأمة يأتي من كليهما، وإنَّ اللهَ من عادته أن يُسَلِّط الظالمَ على الظالم، ويُسلط على بعض الأمة من يُذلها من أعدائها؛ إذا انحرفت عن الجادة، ولايلزم أن يكون المُسَلَّطُ أفضل عند الله من المُسَلَّطِ عليه.

ومن أعظم البيان والتفصيل في هذا المفهوم قول النبي ﷺ: (إذا تَبَايعتُم بِالعِينَة، وأخذتم أذنابَ البقر، ورَضيتُم بالزَّرع، وتركتم الجهادَ، سلَّط الله عليكم ذلًا لا ينزِعه حتى ترجعوا إلى دينكم)(٣).

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٢/٢، رقم ٤٠١٩)، والحاكم (٥٨٣/٤، رقم ٨٦٢٣) وقال: صحيح الإسناد.

(٢) الداء والدواء، لابن القيم (١/ ٤٧١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٤/٣، رقم:٣٤٦٢) وأحمد (٤٢/٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.



دعوة

القُصَّاص وموقف السلف منهم

أ. محمود الزويّد (*)

تمثِّل القصص خلاصة تجارب الإنسان وخبراته في الأحداث المماثلة، كما أنها من أفضل أساليب إقناع المدعوِّين، وإيصال الرسائل لهم بطريقة غير مباشرة؛ لما تحويه من أساليب تصويرية تُقرب المعاني، وتُبرز الأحداث، وتُظهر أنَّ ما يمرُّ به الشخص قد مرَّ به آخرون من قبله، فيتشجع على تقفي آثارهم والأخذ بما ساروا عليه. ولما كانت فئة من الناس قد أساءت لهذا الأسلوب التربوي الراقي، وجب النظر في وضع ضوابط له، وهذا المقال في هذا السياق.

تنتشر القصص وتُتداول بين مختلف شرائح المجتمع؛ لما لها من أثر كبير في تقريب المعنى، وتوضيح المقصود، كما تعد من أهم وسائل التربية والتعليم. وقد حكى القرآن قصص الأمم الماضية، وأخبار الرسل والأنبياء مع أقوامهم، وحدَّث النبي ﷺ بالقصص؛ لما في ذلك من خلاصات التجارب والدروس والعبر. ولقيت القصص وآداب روايتها وشروط تلقيها العناية الكبرى من أهل العلم، ووُضعت فيها المصنفات العديدة من أجل ضبط روايتها وحكايتها، وحمايتها من الخطأ فيها؛ لما لها من أثر كبير على الناس.

وفي المقابل تهاوَن البعضُ في رواية القصص وتداوُلها دون توثُّق منها، أو تأكُّدٍ من صحة أحداثها، فكان لذلك أثر سيء في إشاعة الأخبار غير الصحيحة والشائعات وانتشارها، وأخطرُ ما فيها ما كان متعلقًا بأمور دينية.

واليوم مع سهولة التداول عبر وسائل التواصل الاجتماعي، والتوسُّع في تناقل الأحداث والوقائع والقصص، تظهر الحاجة للتأكيد على صحة المعلومات المتداولة، والتأكد منها قبل نقلها.

وفي هذا المقال إضاءاتٌ على أهم جوانب هذا الموضوع.

تعريف القصة والقُصَّاص:

القصص: تتبع الأثر، يقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئًا بعد شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١][(١)]. والقِصة: الجُملة من الكلام[(٢)].

(*) طالب علم، وباحث شرعي، ومدرس في بعض المعاهد الشرعية

(١) لسان العرب، لابن منظور (٧٣/٧).

(٢) تهذيب اللغة، للأزهري (٢١٠/٨).

للقصص أثر في الناس، وفي توجيههم، وترغيبهم في الخير ومنعهم من الشر، وهي من الوسائل الدعوية، وأدوات التبشير والترغيب في فعل الخير

والقُصَّاص: جمع قاص، والقاص كما قال البغوي: «هو الذي يروي أخبار الماضين، ويسرد عليهم القصص»[1].

وغالبًا ما يخلط القاصُّ كلامَه بالمواعظ، قال السُّبكي: «القاصّ: هو من يجلس في الطُرُقات يذكُر شيئًا من الآيات، والأحاديث، وأخبار السلف»[2].

أهمية القصص:

للقصص أثر في الناس، وفي توجيههم، وترغيبهم في الخير ومنعهم من الشر، وهي من الوسائل الدعوية، وأدوات التبشير والترغيب في فعل الخير.

قال المروزي: «سمعت أبا عبد الله يقول: يُعجبني القُصَّاص؛ لأنَّهم يُذكِّرون الميزان وعذاب القبر. قلت لأبي عبد الله: فترى الذهاب إليهم؟ فقال: أي لعمريّ إذا كان صدوقًا؛ لأنَّهم يذكرون الميزان، وعذاب القبر. قلت له: كنت تحضر مجالسهم أو تأتيهم؟ قال: لا»[3].

وقال مالك بن دينار ﵀: «الحكايات تُحَفُ الجنَّة»[4].

فهذه نصوص السلف في جواز القصص، ومدح أهلها الذين يُذكِّرون الناس بربِّهم، ويُرقِّقون قلوبهم، ويهذِّبون أخلاقهم؛ بشرط ألا يكون في هذه القصص مخالفة الشرع؛ وإلا فهي مردودة، ويُهجر أصحابُها كما فعل السلف مع مثل هذه النماذج.

ومن هنا يتبيَّن أن استخدام القصص في الدعوة إلى الله، من أنجع الأساليب الدعوية وأكثرها حبًّا، وأقربها إلى الناس عامةً، فينبغي على الداعية الناجح أن يستخدم هذا الأسلوب في ترغيب الناس بالخير، وترهيبهم من الشر.

أنواع القصص:

إنَّ الناظر في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وفي كتب التراجم والسير، يستنبط أن للقصص أنواعًا عدة، يمكن للداعية أن يستخدمها في دعوته، وهي:

- قصص الأنبياء والمرسلين، في الحديث عن نبواتهم وإرسالهم إلى قومهم، ومعجزاتهم، وغير ذلك.
- والقصص المتعلقة بالأمم الماضية، كقصة أهل الكهف، وأصحاب السبت، وذي القرنين، وقارون.
- وقصص متعلقة بالحوادث التي وقعت في زمن النبي ﷺ، كالإسراء والمعراج، والغزوات.
- وقصص الصحابة والتابعين، من التعريف بهم، وبمناقبهم، وأعمالهم في خدمة الدين.
- وقصص العلماء الربانين، ورجال الإصلاح والدين، كالإمام أحمد والعز بن عبد السلام، وشيخ الإسلام، والإمام النووي، وغيره.
- كما يمكن للداعية أن يستخدم المتداوَل من القصص التي يتناقلها الناس وخاصة قصص من عُرفوا بالصلاح أو حسن السيرة، وتلك التي تروى في كتب التاريخ والأدب ونحوها؛ للاعتبار بما فيها من دروسٍ وعظات، وهي بابٌ واسع.

تطورت علوم الأدب والرواية منذ قديم الزمان، وقد استخدم الأنبياء عليهم السلام القصصَ في دعوة أقوامهم وتعليمهم، وقصَّ النبي ﷺ قصص الأقوام السابقين وأخبارهم

أسباب انتشار القصص:

ظهور القصص وانتشارها قديمٌ قِدمَ الإنسانِ نفسِه، وتطورت علوم الأدب والرواية منذ قديمِ الزمان، وقد استخدمها الأنبياء عليهم السلام في دعوة أقوامهم وتعليمهم، وقصَّ النبي ﷺ قصص الأقوام السابقين على أهل مكة، وقرأ عليهم الآيات التي وردت فيها، قال تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ

(١) شرح السنة، للبغوي (٣٠٥/١).
(٢) معيد النعم، للسبكي ص (٨٩).
(٣) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٨٢/٢).
(٤) ينظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (١٣١/٢، رقم ١٣٩٧).

جهود عامة
ضبط مصادر التشريع وخدمتها كي لا تضيع أو تختلط بغيرها
تقعيد التعامل مع هذه المسألة من خلال التأليف والمصنفات

جهود أهل العلم في ضبط رواية القصص وحكايتها

التعامل مع القصاص الذين لا يتجنبون رواية الكذب
هجرهم وعدم الاستماع لهم
منع رواية الحديث عنهم
تبيين حقيقة ما هم عليه

لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال: ﴿نحن نقص عَلَيْك أحسن الْقَصَص﴾ [يوسف: ٣]، وقال: ﴿إِن هَذَا لَهو الْقَصَص الْحق﴾ [آل عمران: ٦٢]، فسمّاها المشركون بأساطير الأولين تنقصًا منها وتكذيبًا لها.

وكان ﷺ يأمر بعض أصحابه أن يقصُّوا بعض ما وقع لهم من أحداث، كحادثة تميم الداري مع الدابة والدجال.

وروى الصحابة ﷺ القصص التي سمعوها من الرسول ﷺ، روى عبيد الله بن عبد الله بن عباس عن أبيه: «ولقد كنّا نحضر عنده، فيحدثنا العشية كلّها في المغازي، والعشية كلّها في النسب، والعشية كلّها في الشعر»(١).

كما رووا القصص تلك التي وردتهم عن الأقوام السابقين، والتي عُرفت باسم أخبار بني إسرائيل، ووضع لها أهل العلم الضوابط لروايتها والتحديث بها.

وسار التابعون وأهل العلم على هذه السيرة في قصِّ القصص والتعليم بها والتذكير، ثم شاع اختصاص بعض الأشخاص لرواية القصص فيما عُرف بظاهرة «القصاص»، وكان لذلك أسباب عديدة، من أهمها:

١- الوعظ والتذكير:
كعوف بن مالك ﷺ، وعبيد بن عمير، وموسى بن يسار وغيرهم، وكذا مَن بعدهم كمحمد بن مصعب(٢).

وقد توسَّع بعض القصاص في رواية القصص دون التثبت منها أو عرضها على قواعد الشرع في علم الحديث ومصطلحه، فوقع أصحابها بطوامَّ وتكلَّموا بمناكير، لا يقبلُها الصغير قبل الكبير.

٢- التكسُّب والثراء:
وذلك باتخاذ رواية القصص مهنةً يتكسّب منها الشخص، وقد توسَّعت هذه المهنة في عهد الخلافة العباسية، وأصبحت تُدرُّ المال الكثير على البعض بسبب ما يلقاه صاحبُها من مكانةٍ عند الأمراء والخلفاء، وعامة الناس، فاندفع العديد من الناس للعمل في هذه المهنة، وأصبحوا يروون المكذوبات والموضوعات والغرائب بهدف جذب الناس وزيادة التكسُّب، ومن هنا بدأ مصطلح «القُصّاص» يأخذ معناه الدالَّ على عدم الدقّة والكذب في المرويّات.

٣- الشهرة وحب الظهور:
والتي قد تظهر عند البعض، روى أبو بكر المروزي في كتاب «العلم» والطبراني عن يحيى البكاء قال: «رأى ابن عمر قاصًّا يقصُّ في المسجد

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٣/٣٥٠).
(٢) ينظر: العلل ومعرفة الرجال، للإمام أحمد (١/٣١٧).

الحرام ومعه ابنٌ له، فقال له ابنه: أيُّ شيء يقول هذا؟ فقال: هذا يقول اعرفوني اعرفوني»[١].

وقد توجد أسبابٌ أخرى تختلفُ من شخص لآخر، وهذه الأسباب وغيرُها مما نلحظُها في المتصدِّرين للحديث ونقل الأخبار في وسائل التواصل المعاصرة.

والسبب الأول يدخُلُ في باب الجواز، ويختلف حكمه بحسب الحاجة فهو في العموم في دائرة الاستحباب، ما لم يتضمَّن كذبًا.

وأمَّا الثاني والثالث، فأقلُّ أحواله الكراهة؛ لما يترتَّب عليه من الرغبة في التصدُّر والظهور، وقد يصل للتحريم بسبب ذلك، أما إن خالطه الكذب ورواية ما لم يصح فهو من المحرَّم بلا شك.

> **لما استغل البعض إباحةَ الشرع لرواية القصص بحجة الوعظ والتذكير؛ جاعلين منه سبيلًا للتكسب، ومرتعًا للظهور والشهرة، صارت هذه الظاهرة سلاحًا ذا حدَّين، من كونها:**
> **١- وسيلة للدعوة إلى الله: بالوعظ والتذكير وترقيق القلوب.**
> **٢- معول هدم في صرح الدين: من خلال رواية الحكايات المكذوبة، أو غير المعقولة أو المخالفة للشرع.**

جهود أهل العلم في ضبط رواية القصص وحكايتها:

كان لأهل العلم جهودٌ في خدمة مصادر التشريع (القرآن والسنة) من الضياع أو الاختلاط، وبخاصة السنة النبوية، من خلال قوانين علم الحديث، ومعرفة الرجال والعلل، والجرح والتعديل، وضبط مسائل السماع والرواية، وشروط التلقي والرحلة، وغير ذلك.

وفي ظل توسع «ظاهرة القصاص» التي كان لها أثر بالغ في واقع الناس، انتهج أهل العلم سبيلًا في بحث هذه الظاهرة، والنظر فيها، ومن سار على دربها، من خلال محاكمتهم إلى القواعد الشرعية تارة، والتحذير من دعاتها إن كانوا أهلَ سوء وإعلامًا كاذبًا تارة أخرى، وصنفوا فيها التآليف تبيينًا وتوضيحًا، فمن تلك الكتب التي عالجت هذه القضية وتكلم أهلها في القصص والقصاص جرحًا وتعديلًا: «كتاب القصاص والمذكرين» للحافظ أبي الفرج ابن الجوزي البغدادي، و«أحاديث القصاص» لشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية الحراني الدمشقي، و«الباعث على الخلاص من حوادث القصاص» للحافظ زين الدين أبي الفضل العراقي، و«تحذير الخواص من أكاذيب القصاص» للحافظ جلال الدين السيوطي، فضلًا عما جاء بعدها من المؤلفات، مع ما هو مذكور ومنثور في بطون الكتب بخصوص هذا الموضوع.

ولما امتطى البعض إباحةَ الشرع لرواية القصص بحجة الوعظ والتذكير؛ جاعلين منه سبيلًا للتكسُّب، ومرتعًا للظهور والشهرة، **صارت هذه الظاهرة سلاحًا ذا حدَّين**، من كونها:

١- وسيلة للدعوة إلى الله:

وتذكير الناس بالحقوق الشرعية، قال ابن الجوزي: «وقد كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص، فينهون عن الحضور عندهم، وهذا على الإطلاق لا يحسُنُ اليوم؛ لأنَّه كان الناس في ذلك الزمان مُتشاغلين بالعلم، فرأوا حضور القصص صادًّا لهم، واليوم كثُر الإعراض عن العلم، فأنفعُ ما للعامّي مجلسُ الوعظ، يردُّه عن ذنب، ويحركه إلى توبة؛ وإنما الخلل في القاصّ، فليتَّق الله عز وجل»[٢].

٢- معول هدم في صرح الدين:

من خلال رواية الحكايات المكذوبة، أو غير المعقولة أو المخالفة للشرع، وقد أعان على ذلك ما يحوزه بعض دعاتها والمتكلمين بها من قوة البيان، فضلًا عن تسهيل وسائل الإعلام لنشرها وترويجها.

ولما كان الحال كذلك وأشد، كان لأسلافنا وعلمائنا موقف حاسم في التعامل مع القُصَّاص الذين يُكثرون من رواية الكذب وما لا يجوز، أو الذين لا يتحرَّون الصحة والدقة في كلامهم، فمن ذلك:

(١) تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، للسيوطي ص (١٧٧-١٧٨)، و الباعث على الخلاص من حوادث القصاص، للعراقي ص (١٣٨-١٣٩).
(٢) صيد الخاطر، لابن الجوزي ص (١١٥).

شروط رواية القصص وحكايتها

- الابتعاد عن غرائب الأخبار، التي هي مظنة الكذب والمبالغات
- ذكر القصص الواضحة البيّنة
- البعد عن القصص الركيكة في اللفظ والمعنى
- البعد عن الأحاديث الضعيفة
- رواية القصص كما هي دون تغيير
- حسن السلوك والبعد عن السفه والكذب والابتداع

> «وقد كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص، فينهون عن الحضور عندهم، وهذا على الإطلاق لا يحسُنُ اليوم؛ لأنَّه كان الناس في ذلك الزمان مُتشاغلين بالعلم، فرأوا حضور القصص صادًّا لهم، واليوم كثُر الإعراض عن العلم، فأنفعُ ما للعامّي مجلسُ الوعظ، يردُّه عن ذنب، ويحركه إلى توبة»
>
> ابن الجوزي رحمه الله

تحذير السلف من القُصَّاص الذين لا يتحرَّزون من رواية الكذب:

١- هجرهم وعدم الاستماع لهم:

قال مجاهد: «كنا جلوسًا في المسجد، فجاء قاصٌّ، فجلس قريبًا من ابن عمر يقصّ، فأرسل إليه ابن عمر أن لا تؤذِنا، قم عنّا، فأبى، فأرسل إلى صاحب الشرط، فبعث شرطيًا فأقامه»(١).

وأخرج العقيلي، وأبو نعيم، عن عاصم قال: كنا نجالس أبا عبد الرحمن السلمي فكان يقول: «لا يجالسنا حَروري ولا من يجالس القُصاص»(٢).

٢- منع رواية الحديث عنهم:

فعن أبي الوليد الطيالسي قال: «كنت مع شعبة، فدنا منه شاب. فسأل عن حديث فقال له: أقاصٌ أنت؟ قال: نعم. قال: اذهب؛ فإنّا لا نحدث القُصاص. فقلت له: لِمَ يا أبا بسطام؟ قال: يأخذون الحديث منا شبرًا فيجعلونه ذراعًا»(٣).

٣- تبيين حقيقة ما هم عليه:

مما يكون سببًا في تمييز الناس لهم عن أهل العِلم والدعوة، قال أبو قلابة: «ما أمات العلمَ إلا القُصاص. يجالس الرجل القاصَّ سنة فلا يتعلق منه بشيء، ويجالس العالمَ فلا يقوم حتى يتعلق منه بشيء»(٤).

وقال ابن الجوزي: «فكم قد أفسد القصاص من الخلق بالأحاديث الموضوعة، كم لون قد اصفرَّ بالجوع وكم هائم على وجهه بالسياحة، وكم مانع لنفسه ما قد أبيح، وكم تارك رواية العلم زعمًا منه مخالفة النفس في هواها في ذلك، وكم موتم أولاده بالتزهد وهو حي، وكم معرض عن زوجته لا يوفيها حقها فهي لا أيِّم ولا ذات بعل»(٥).

---

(١) شرح السنة، للبغوي (٣٠٥/١).
(٢) تحذير الخواص، للسيوطي ص (٢٣٦)، والحلية، لأبي نعيم (١٩٣/٤).
(٣) كتاب القصاص والمذكرين، لابن الجوزي ص (٣٠٨).
(٤) أخرجه أبو نُعيم في الحلية (٢٨٧/٢).
(٥) الموضوعات، لابن الجوزي (٣٢/١).

فإذا أراد القاصُ أن يحدث الناس فلا بدَّ أن ينتقي من الأحاديث ما يكون صحيحًا وصريحًا، ولا يحدثهم بالضعيف أو الموضوع من الأحاديث في ثنايا قصصه، وهم جاهلون بهذه الشروط والمراتب، فيتعلقون بهذه الأحاديث ويعتقدونها دينًا، ويروونها ثقة بمن حدّثهم بها

شروط رواية القصص وحكايتها:

إذا كانت القصص من الوسائل الدعوية، فلا بدَّ من ضوابط وشروط، ومن خلال تتبع كلام أهل العلم المانعين للقصص، وكذا المجوزين، تبين أنَّ هناك شروطًا ينبغي أن تتوفر للقاص الذي يتولى هذه المهمة، ومنها:

١- الابتعاد عن غرائب الأخبار، التي هي مظنة الكذب والمبالغات:

روى الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» عن إبراهيم، قال: «كانوا يكرهون غريب الحديث والكلام»(١)، وقال الإمام أحمد: «ما أحوج النَّاس إلى قاصٍ صدوق». وقال: «إذا كان القاص صدوقًا فلا أرى بمجالسته بأسًا»(٢).

٢- ذكر القصص الواضحة البيّنة:

ينبغي أن تكون القصص واضحة بيّنة، حتى لا تختلط الأمور ببعضها، وتكون النتائج بعكس الذي يراد منها، روى مسلم في «مقدمة صحيحه»، بسندهِ عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أنَّ عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «ما أنت بمحدثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»(٣).

وروى البخاري في «كتاب العلم» من صحيحه، عن علي ﷺ قال: «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُه»(٤).

٣- البعد عن القصص الركيكة في اللفظ والمعنى:

والتي تفسد الذائقة واللغة، روى الحاكم في «معرفة علوم الحديث» عن الربيع بن خثيم قال: «إنَّ من الحديث حديثًا له ضوء كضوء النهار نعرفه به، وإنَّ من الحديث حديثًا له ظلمة كظلمة الليل نعرفه بها»(٥).

٤- البعد عن الأحاديث الضعيفة:

فإذا أراد القاصُ أو الواعظ أو المذكِّر أن يحدث الناس فلا بدَّ أن ينتقي من الأحاديث ما يكون صحيحًا وصريحًا، ويبتعد عن الضعيف، فإن العلماء انقسموا في روايته على قولين: الأول المنع، والثاني: الجواز، وحصروا ذلك في نطاق ضيق، كباب المواعظ والرقائق، والترغيب والترهيب، وبشروط عديدة من أهمها: أن لا يخالف ما هو صحيح، وألا يعتقد ثبوته عند روايته، وأن يروى بصيغة التمريض كقوله: قيل ويروى، لا بصيغة الجزم، وأن يكون مندرجًا تحت أصل عام، بحيث لو أراد أن يروي يصدر الصحيح ثم الضعيف، وأن يكون أساس ضعف الحديث من قبل حفظ الراوي لا عدالته، فإنَّ ضعيف العدالة مضروب عليه ولا يتقوى بغيره، وتركه أولى، وهذه الشروط معلومة في رسم المحدثين، لكنها كثيرًا ما تخفى على عامة الناس.

فينبغي على من يُحدث الناس أن يتَّقي الله فيهم، فلا يحدثهم بالضعيف أو الموضوع من الأحاديث في ثنايا قصصه، وهم جاهلون بهذه الشروط والمراتب، فيتعلقون بهذه الأحاديث ويعتقدونها دينًا، ويروونها ثقة بمن حدثهم بها.

«إنَّ من الحديث حديثًا له ضوء كضوء النهار نعرفه به، وإنَّ من الحديث حديثًا له ظلمة كظلمة الليل نعرفه بها»

الربيع بن خثيم رحمه الله

٥- التوقي في رواية القصص بحيث يرويها كما هي دون تغيير:

فقد يعمد بعض القصَّاص إلى تغيير وقائع القصص، أو الزيادة فيها، رغبةً في إضافة مزيد من التشويق أو الغرابة عليها، وجذب الناس، ويُخشى على فاعله من الوقوع في الكذب.

---

(١) المحدث الفاصل، للرامهرمزي ص (٦٢٧).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٨٢/٢).

(٣) مقدمة صحيح مسلم (١١/١).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٧).

(٥) معرفة علوم الحديث، للحاكم ص (٦٢).



أما إن كانت هذه القصص مما هو ثابت بالكتاب أو السنة، أو التاريخ، فإن تغيير وقائعها وأحداثها من الكذب المنهي عنه.

ولا مانع من رواية هذه القصص بالمعنى بما لا يغير وقائعها ولا يُحرِّف أحداثها.

٦- حسن سلوكه، وبعده عن السفه والكذب والابتداع.

كما روى الخطيب في «الكفاية»، بسنده عن معن بن عيسى، قال: كان مالك بن أنس يقول: «لا تأخذ العلم من أربعة، وخذ ممن سوى ذلك، لا تأخذ من سفيه معلن بالسَّفَه، وإن كان أروى الناس، ولا تأخذ من كذاب يكذب في أحاديث الناس، إذا جرِّب ذلك عليه، وإن كان لا يُتَّهم أن يكذب على رسول الله ﷺ، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من شيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث»[(١)].

وختامًا:

من أراد رواية القصص أو السماع لأهلها، فعليه أن يتثبت من شخص المتكلم وسلامته من الكذب والتدليس، وأن يتأكد من صحتها قبل تصديقها أو روايتها، وذلك بالرجوع لأهل الاختصاص وسؤالهم عنها، وأن تكون موافقة للمنقول والمعقول.

وألا يغتر بجمال القصة، أو كثرة كلام القاص، وحلاوة منطقه، وجمال مظهره، فهذا في الحقيقة عند العلماء العارفين ليس بكافٍ في تزكيته والسماع منه، وتصديق أخباره، قال الجوزجاني: «سمعت أبا قدامة، يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: ربَّ رجل صالح لو لم يحدث كان خيرًا له، إنَّما هو أمانة، تأدية الأمانة في الذهب والفضة أيسر منه في الحديث»[(٢)].

(١) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي ص (١٣٤).
(٢) شرح علل الترمذي، لابن رجب الحنبلي (٩٥/١).



قراءة في كتاب «حجاب الرؤية» للدكتور: عبد الله بن رفود السفياني

أ. أحمد بن أسامة حلاق (*)

مع الاتفاق على أهمية عمل الفقهاء في استنباط الأحكام الشرعية من أدلة الوحيين نصًا ومفهومًا وروحًا، يحق لنا أن نتساءل حول الأمور التي يمكنها أن تؤثر في اختيارات الفقهاء نظرًا لطبيعتهم البشرية ومحيطهم الاجتماعي والثقافي، ألا يمكن أن تكون هذه الأمور وغيرها حجابًا لهم يحول دون الرؤية العلمية الخالصة والمتجردة؟ هذا ما يبحثه هذا الكتاب، وتحاول هذه القراءة تقريبه من ثنايا الكتاب وصفحاته.

نبذة عن المؤلف:

عبد الله بن رفود السفياني: ولد عام ١٩٧٥م في الطائف، أكاديمي وباحث مهتم بالنقد في الخطاب الإسلامي، نال الماجستير في التربية الإسلامية برسالة (تربية الإرادة في الفكر الإسلامي)، والدكتوراه برسالة (ضوابط النقد التربوي عند شيخ الإسلام ابن تيمية). عمل في التعليم العام، وله عددٌ من الكتب المنشورة[1].

وصف الكتاب:

يقع الكتاب في (١٧٤) صفحة من القطع المتوسط، والطبعة الأولى منه لمركز نماء للبحوث والدراسات في بيروت، عام ٢٠١٣م.

موضوعه:

العلماء ورثة الأنبياء، علمهم هو ميراث النبوة وشريعتها وأخلاقها، أضافوا إليه من عقولهم قبسات معرفية تراكمت عبر الأجيال، وهم في الوقت نفسه ليسوا معصومين، بل بشر يعتريهم النقص. وهنا يلحُّ السؤال حول تأثر اختياراتهم الفقهية بطبيعتهم البشرية وبمحيطهم الاجتماعي والثقافي والجغرافي: ألا يمكن أن تكون هذه الأمور حجابًا يحول دون الفقيه ودون الرؤية العلمية الخالصة؟ وبقدر سماكة هذا الحجاب وقوته يقترب أو يبتعد عن معرفة الحق، أو قد يصل إليه لكن لكونه وافق شيئًا في النفس فتمكَّن منه؟.

(*) ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، داعية وكاتب.

(١) ويكيبيديا.

الكتاب الذي بين أيدينا عنوانه (**حجاب الرؤية قراءة في المؤثرات الخفية على الخطاب الفقهي**) وهو يعالج عددًا من القضايا المتعلقة بالفقيه واختياراته الفقهية، من خلال بيان أثر العوامل المختلفة على فتاواه، وقد عالج أربعة من تلك العوامل المؤثرة وسماها حُجُبًا، وهي: (حجاب النفس، والعادة، والبيئة، والاستبداد). دون أن يتطرّق لقضية الهوى الظاهر والتعصّب، فهو ليس محلَّ بحثه.

محتوى الكتاب:

يتألف الكتاب من:

١. مقدمة: تحدث فيها الكاتب عن النطاق الموضوعي للكتاب والأسباب التي دعته لكتابته، وخطة الكتاب وأبرز مكوناته.
٢. الفصل الأول: مداخل منهجية لفهم الحُجُب: تضمن ثلاثة مباحث، هي: (العلماء بين المكانة والتقديس، طبيعة الخطاب الفقهي، أسباب اختلاف العلماء .. مدخل لرؤية مغايرة).
٣. الفصل الثاني: الحجب المؤثرة على الخطاب الفقهي: وهي أربعة: (حجاب النفس، والعادة، والبيئة، والاستبداد).
٤. الخاتمة: كشف الحجب نحو رؤية فقهية أوسع: وتحته خلاصتان: (نتائج ما قبل الحجاب، وتوصيات كشف الحجاب).

القراءة في الكتاب:

الفصل الأول: مداخل منهجية لفهم الحُجُب:

أولًا: العلماء بين المكانة والتقديس:

يتبوّأُ العلماء في الإسلام مكانة عظيمة باعتبارهم حملة الرسالة وأوعية العلم؛ لذلك فإنَّ الحطَّ من قدرهم أو تتبع عثراتهم التي لا يخلو منها بشر هو طريقة وخيمة لا يقع فيها إلا من في قلبه مرض ووهن.

وهذا لا يعني الغلوَّ فيهم والتعصُّب لآرائهم من غير علم، وتقديسهم جرَّ إلى نفور طائفة أخرى فقدحت فيهم من غير ذنب منهم، والواجب أنْ نُنزلهم منازلهم اللائقة بهم وبعلمهم، دون أن ندَّعي العصمة لأحد منهم.

ولقد كان لبعض العلماء أخبار ونُقولات تدل على إدراكهم لهذه الطبيعة النفسيّة والحياتية، يكشف ابن تيمية ﵀ عن حقيقة هذا الهوى الخفي الذي لا يكاد يَسلم منه أحد فيقول: «إنّ الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة... قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقرونًا بالظن ونوع من الهوى الخفي، فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه وإن كان من أولياء الله المتقين، ومثلُ هذا إذا وقع يصير فتنة لطائفتين: طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل، وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحًا في ولايته وتقواه... بل وفي إيمانه حتى تخرجه عن الإيمان وكلا هذين الطرفين فاسد»[١].

> **يتبوّأُ العلماء في الإسلام مكانة عظيمة باعتبارهم حملة الرسالة وأوعية العلم؛ لذلك فإنَّ الحطَّ من قدرهم أو تتبع عثراتهم التي لا يخلو منها بشر طريقة وخيمة لا يقع فيها إلا من في قلبه مرض ووهن. وهذا لا يعني الغلوَّ فيهم والتعصُّب لآرائهم من غير علم.**

وقال عبد الله بن عمرو ﵄: «كنت أكتب كلَّ شيءٍ أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله بشر يتكلم في الرضا والغضب! فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام فقال: (اكتب فوَ الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق)»[٢]. وفيه دلالة على أنّ مَن عدا رسول الله ﷺ خاضعٌ لما تخوَّفت منه قريش من تناوب الأحوال بين الرضا والغضب وغيرها، وهذا ليس منقصة في حقهم، بل على طالب العلم والفقيه وغيرهم أن يعرف هذه الحقيقة ويدركها، ويقدِّرها حق قدرها من غير غلو ولا تفريط.

---

(١) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٣٢٦/٤).
(٢) أخرجه أحمد (٦٥١٠) وصححه أحمد شاكر.

> ينبغي التركيز على ضرورة الفصل بين النص والوحي، وبين الفقه والعلم بهذا الوحي؛ فالأول إلهي المصدر معصوم، والآخر رؤية بشرية تصيب حينًا وتخطئ حينًا

ثانيًا: طبيعة الخطاب الفقهي:

إذا كان الفقه بمعناه اللغوي يعني الفهم والعلم بالشيء، فالفهم والعلم شيء آخر غير النص أو الوحي؛ وذلك لأن الوحي هو ميدان الفهم والعلم ومن خلاله يتكون الخطاب الفقهي، فينبغي التركيز على ضرورة الفصل بين النص والوحي، وبين الفقه والعلم بهذا الوحي؛ فالأول إلهي المصدر معصوم، والآخر رؤية بشرية تصيب حينًا وتخطئ حينًا.

وعلى هذا: توجد نصوص مُحكمة يقابلها فهم محكم لا يختلف فيه؛ فهي قطعية الثبوت قطعية الدلالة والفهم، وتوجد نصوص متشابهة دلالتها ظنية ويقابلها فهم متشابه ظني، وهي كثيرة في نصوص الشريعة.

وهذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ: (إذا حَكم الحاكم فاجتهدَ ثمَّ أصاب فله أجران، وإذا حَكم فاجتهدَ ثمَّ أخطأَ فلَه أجر)[١].

ومن طبيعة الأدلة الشرعية الظنيَّة أنها أدلة حمّالة أوجه، مما يعطيها سعة في مدلولاتها، ويسمح بتعدد الرؤى حولها، وهو سبب جوهري من أسباب اختلاف العلماء قديمًا وحديثًا.

ثالثًا: أسباب اختلاف العلماء:

الناظر في أمور الناس وحقيقة الخلق يعلم أنَّ الاختلاف هو الأصل فيهم والاتفاق التامُّ طارئ، وما جاء على أصله لا يُسأل عن سببه كما يقول النحويون، وهذا مؤكَّد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [يوسف: ١١٨-١١٩]، ولأهل التفسير في تأويل قوله تعالى: (ولذلك خلقهم) أقوال، واختار الحسن البصري وغيره أنه خلقهم للاختلاف، وهذا يدل على أن الاختلاف سنة كونية، فالكون قائم على الاختلاف ولكنه الاختلاف المبني على التنوع، وليس المفضي إلى الفتنة والدمار.

ولمّا حصل التدفق الإعلامي الهائل على الأمة، وتيسر الحصول على المعلومة بيسر حصل اضطراب شديد وتساءلَ بعضهم: كيف تنضبط الفتوى؟ وكيف نمنع الاختلاف؟ وكيف نجعل الناس على قول واحد؟ ولماذا يختلف العلماء والدين واحد؟

دون أن يدركوا أن الاختلاف سنة الله الماضية مع تباين درجات الاختلاف بين الناس، والاختلاف المقبول ليس أمرًا سلبيًا كما يتوهَّمه البعض، بل هو دليلُ ثراء الشريعة وسعتها، فالجمود على القول الواحد يعني الموت البطيء للمذهب والفكرة، ولا يُمكن للتجديد -الذي هو من سمات هذا الدين- أن يؤتي ثمرته في ظل الالتزام بالقول الواحد، هكذا فهم السلف رضوان الله عليهم، حتى قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنه لو كان قولًا واحدًا كان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، ولو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة»[٢].

وأرجع ابن حزم وابن تيمية أسباب اختلاف العلماء إلى سببين:

١. النصوص الشرعية وما يلحقها من احتماليات تتعلق بثبوتها أو معانيها ومآلاتها أو وصولها للمجتهدين من عدم ذلك.
٢. الاختلاف في مدارك المجتهدين وقراءتهم لدلالات الأدلة واجتهاداتهم فيما لا نصّ فيه.

وهذه لا شك أنها أسباب موضوعية تفسر الخلاف في مسائل بعينها إلا أنّ هناك أسبابًا أخرى للخلاف قامت المدارس الفقهية والمذاهب عليها، وكوّنت حجبًا مختلفة أدت دورها في بيئات دون أخرى، ومن أهم هذه الأسباب:

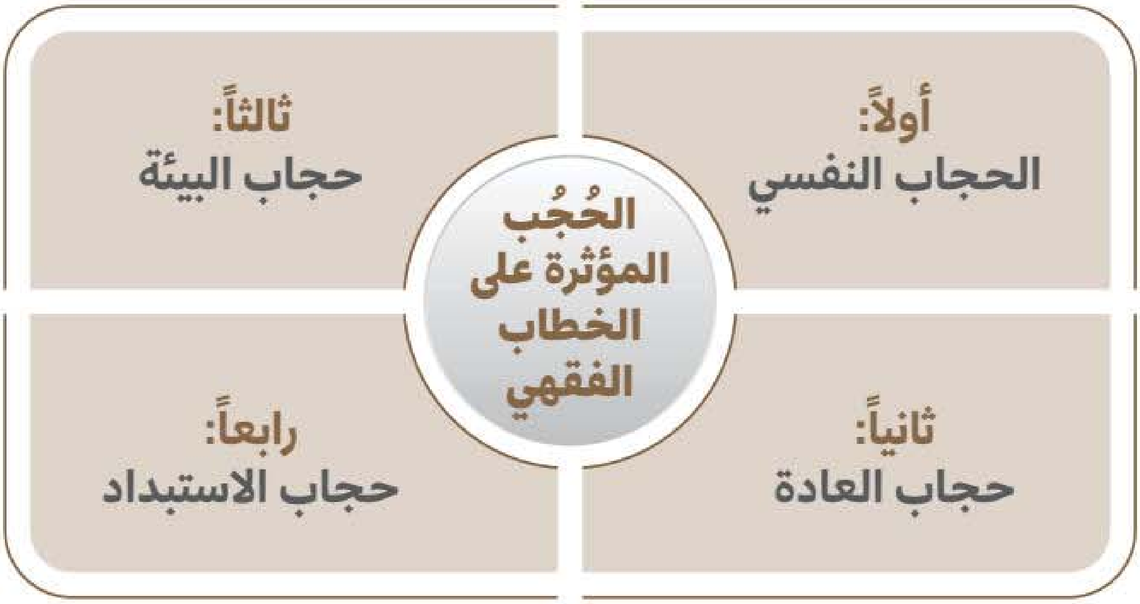
أ- تشكيل الذهنية الفقهية:

ويقصد به أن المدارس الفقهية والمذاهب المعتمدة تُشكّل ذهنيات أصحابها بتأثير مباشر من مؤسسي هذه المدارس التي بدأت بالصحابة الأبرار.

لذلك فإن أئمة المذاهب طَبع كلٌّ منهم شخصيته على طريقة المذاهب من بعده في سمت معين، فقد كان لكراهية الإمام مالك الشديدة للبدع وتحذيره منها تأثير في عناية علماء المالكية بتتبع المحدثات والبدع المخالفة للهدي النبوي.

---

(١) البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).
(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/٩٠١).



ب- اختلاف البيئات وتنوعها:

لو استقرأنا كل بيئة على حدة لملاحقة ظروفها الاجتماعية والتاريخية والثقافية، لوجدنا أن هذه البيئات -بطريقة أو بأخرى- فرضت على الفقهاء نمطًا معينًا من النظر، وأمدّتهم ببعض الأدوات وحرمتهم من أخرى، واضطرتهم للنظر في أمور لم يرها غيرهم ممن لم يتعرض لهذا التأثير أو ذاك.

ولذلك فأهم الأسباب التي أدت إلى اختلاف نزعتي الأثر والرأي ما يلي:

١. أنّ الأحاديث وفتاوى الصحابة لم تكن كثيرة في العراق كثرتها في الحجاز.

٢. أنّ العراق كان موضع الفتن التي أدت إلى افتراء الأحاديث وتحريفها.

٣. بيئة كل من العراق والحجاز مختلفة؛ فالأقضية والحوادث اختلفت مع اختلاف البيئتين.

> **المُلاحظ للعقل الفقهي هنا وهناك سيجد فروقًا جوهرية مردُّها إلى نوعية النشاط الفكري والثقافي الذي يمارسه المجتمع**

ج- أنماط التفكير والنشاط العقلي:

يُقصد بذلك طرائق التفكير وأساليبه، فقد أثرت في تشكيل العقليات؛ لأنها تختلف من بيئة لأخرى، وطبيعة النشاط الفكري وما يدور من أحداث مختلفة في كل بيئة وكل بلد من بلاد المسلمين يسهم في البناء العقلي للفقيه في ذلك البلد، وتتباين رؤى الفقهاء وتختلف تبعًا لهذه المؤثرات، وعليه فإن الملاحظ للعقل الفقهي هنا وهناك سيجد فروقًا جوهرية مردّها إلى نوعية النشاط الفكري والثقافي الذي يمارسه المجتمع.

الفصل الثاني: الحُجُب المؤثرة على الخطاب الفقهي:

أولًا: الحجاب النفسي:

الدراسات التي كُتبت عن النفس البشرية تكشف كل يوم عن جهل الإنسان بكثير من جوانبها، ومن هذه الجوانب: عملية الاختيار التي يمارسها الإنسان في حياته، هل هو حرّ فيها بشكل مطلق؟ أم تؤثر فيها عوامل داخلية وخارجية؟

وبالتحول إلى الاختيارات الفقهية؛ فالفقهاء بشر يدخلون ضمن منظومة الطبع الإنساني المتغيّر والمتقلّب بكل ما فيه من نزعات خير وشر، ومن هذه النزعات:

١- الانفتاح على الذات:

كثير من العلماء كان منفتحًا على ذاته قادرًا على مصارحتها، فاعترف بوجود شهوة غالبة وعادة طاغية انتصر عليها بقوله، وعجز عنها في فعله، يظهر ذلك في تقريره لحكم شرعي فقهي بأدلته،

ثم الاعتراف أمام الملأ بأنه يقع في خلاف ما يقرر لسبب أو لآخر، وهذا ما يسمى بالانفتاح الذاتي.

إن الانفتاح على الذات والتصالح معها ليس بهذه السهولة التي يمكن لكل أحد أن يدعيها لأسباب عدة من أهمها:

١. وقعه الشديد على النفس خاصة كلما كان التناقض بين الرغبة والاختيار العقلي صارخًا.

٢. أن بعض هذا التناقض خفي جدًا ويمر عبر مسارب نفسية لا يكاد يشعر الفقيه بها.

٢- الأنا والهُو:

الهُو: هو المنطقة التي تختزن عالم الرغبات والشهوات وما تطلبه النفس من غرائز طبيعية وهو منطقة لاشعورية تعمل على مبدأ جلب اللذة ودفع الألم.

أما الأنا: فهي منطقة تلعب الدور المنظم بين (الأنا العليا) و(الهُو)، فهي تقبل بعض طلبات (الهُو) لكن وفق رؤية اجتماعية مقبولة، ويعتبر مركز الشعور، ولذلك غالبًا ما تكون واعية وواقعية.

أما الأنا العليا: فهي منطقة واعية جزئيًا، تشكّل الضمير الأخلاقي والوازع، وهي صورة الشخصية في تحفظها وعقلانيتها المتناهية، لذلك فهي مثالية وتتجه للكمال، وتتشكل عبر التربية والتنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الفرد من مجتمعه.

إن الأنا العليا ومدى قوتها وتنشئتها ومثاليتها قد تفسر لنا مثلًا اختيار الفقهاء لقاعدة (سدّ الذرائع) على (فتح الذّرائع)، وتفسر أيضًا نزوع بعض الفقهاء إلى القول بالأحوط والإكثار منه في فتاواه، بينما يرى آخرون أن الأحوط ترك الأحوط، ويفسّر توقف بعض الفقهاء في مسألة معينة لأنه يرى خفاء الدليل فيها، بينما تكون في حقيقتها تعارضات بين المناطق الثلاثة وعدم الشعور بالارتياح النفسي في ذلك.

> **النمط الشخصي يؤثر على صاحبه في اختيار وترجيح قول دون آخر وارتياحه له، لأنه ألصق بطبيعته النفسية، وليس هذا من قبيل الهوى والتشهي، بل هو أثر قد لا يدركه الفقيه**

فالفقهاء كغيرهم من البشر مرّوا بتنشئة اجتماعية معينة زودتهم بكثير من القِيم والأخلاق والأفكار وهي تتفاوت من بيئة لأخرى.

٣- أنماط الشخصية:

يلعب الشعور واللاشعور والعلاقات الديناميكية القائمة بينهما عبر الأقسام الثلاثة السابقة دورًا كبيرًا في تشكيل نمط الشخصية، بالإضافة إلى العامل الوراثي الذي يرى بعض العلماء أنّ له إسهامًا لا يُستهان به في تشكيل نمط الشخصية من انطوائية وانبساطية وعدوانية وخجولة... إلخ.

فالنمط الشخصي يؤثر على صاحبه في اختيار وترجيح قول دون آخر وارتياحه له؛ لأنه ألصق بطبيعته النفسية، وليس هذا من قبيل الهوى والتشهي، بل هو أثر قد لا يدركه الفقيه، لذا نجد الشخصيات ذات النمط المتشدد الحاسم تميل تلقائيًا إلى الأقوال والآراء التي تتسم بالشدة والاحتياط والتحفظ؛ لتناسبها مع طبيعتها النفسية، والعكس صحيح.

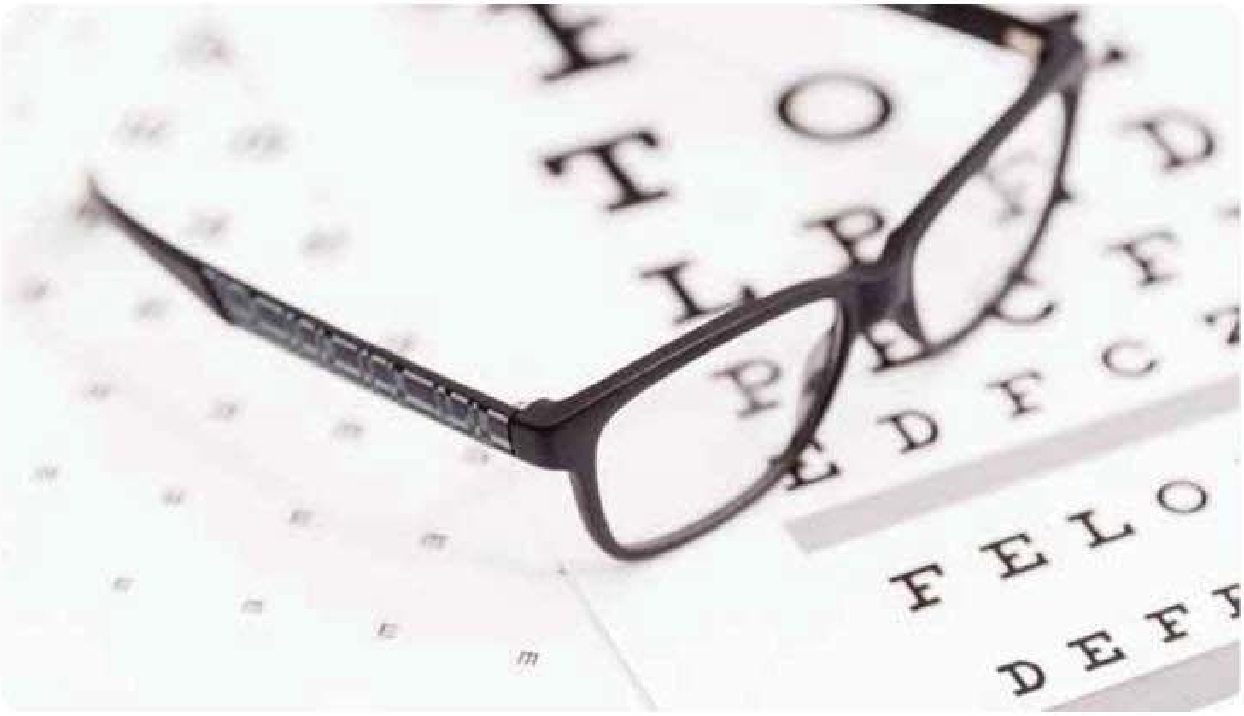
وقد تحدث ابن القيم في زاد المعاد عن رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر، فقال: «وكذلك كان هذان الصاحبان الإمامان أحدهما يميل إلى التّشديد والآخر إلى التّرخيص، وذلك في غير مسألة»[1].

وهذا ليس من باب الهوى أو الشهوة بل كان قائمًا على الدليل وطلب الحق، فعبد الله بن عمر ﵄ كان يسلك طريق التّشديد والاحتياط، أما ابن عباس ﵄ فكان شخصية مبادرة، عالمًا بالتأويل والفقه والشعر والأنساب، ولم يكن يكتفي بمصدر واحد للمعرفة بل ينوّع في أخذها من مصادر متعددة، أما شخصية ابن عمر ﵄ فقد كانت شخصية نزّاعة إلى الزهد والورع والأخذ بالأحوط والرضا بالقليل، وكانت شخصية مجبولة على الاتباع والتقيُّد بظاهر النصوص والمبالغة في الاقتداء، واجتناب ما يعكّر صفوَ خلوته بالله وحبه له وإقباله عليه، وهذا التباين في الطبيعتين النفسيتين للإمامين العالمين ﵄ يتّضح بجلاء في طريقة تعاطيهما مع الفتوى.

٤- الفكر والسلوك:

العلاقة بين الفكر والسلوك علاقة تبادلية ويؤثر كل واحد منهما في الآخر ويسهم في تكوينه؛ فالممارسات السلوكية تكون أفكارًا لتوجد لها

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٤٢/٢).



مساحة جديدة في العقل البشري، والممارسة المتكررة للسلوك تولّد رغبة في إيجاد مبرر فكري ومخرج منطقي لهذا السلوك، وهذا يفسر تحول الفقيه بسبب ممارسته السلوكية الجديدة من قول متشدد إلى قول متساهل أو العكس؛ ليس لترجيح علمي بالدرجة الأولى، بل لأن السلوك المتكرر دفعه لتغيير الرأي ليتناسق مع سلوكه وفكره.

ثانيًا: حجاب العادة:

تتداخل العادات وتترابط رغم تنوعها، وتشكّل منظومة متكاملة يصعب اختراقها، وتؤثر مباشرة في طرق التعليم وأساليبه، كما تؤثر بطريقة غير مباشرة فيما تكسبه للأفراد من صفات تجعلهم أكثر تكيفًا مع مجتمعاتهم، بحيث يتلقّون كثيرًا من الأفكار الشائعة بالتسليم والقبول، وإشكالية العادات تكمن في عدة مستويات منها:

- تلقّي الفقيه لنمط معين من التعليم وطرائق الفهم والاستيعاب.
- تعامل الفقيه مع العادات لتحرير اعتبار المعتَبر وإلغاء الملغى (فالعادة محكّمة).
- اختلاف المصلحة والمنفعة من مكان إلى آخر.

فقد قدّم إمام دار الهجرة وعيًا في غاية الأهمية في نشوء المذاهب الفقهية حينما رفض ما أراده أبو جعفر المنصور من حمل الناس على الموطأ، خشية أن يصنع كتابًا يُحمل الناس عليه قسرًا وكرهًا، وهم قد اعتادوا العمل بما سبق إليهم من أقوال وأحكام، فقال له الإمام مالك: «لا تفعل، فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث وروايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودالوا له من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإنّ ردهم عما اعتقدوا شديد، فَدَع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم»[١].

ثالثًا: حجاب البيئة:

البيئة هي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء، ويمارس فيه علاقاته وصِلاته، فحياة الإنسان تجري داخل ظرف زماني ومكاني، والظرف المكاني يمكن أن يسمى: (بيئة الإنسان)، وقد كان من تقدير الله تعالى أن جعل هذه البيئات متباينة ومتنوعة شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، فللبيئة أثرٌ كبير وواضح على الإنسان، ويُعتبر ابن خلدون من أوائل من أشار إلى هذا التأثير في مقدمته الشهيرة حيث تحدث عنه في أكثر من موضع.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الفخر والخُيلاء

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض (٦٠/١).

في الفَدَّادِين أهلِ الوبر، والسكينة في أهل الغنم، والإيمان يمان، والحكمة يمانية)[1].

فهذا الحديث يميّز بين بيئتين مختلفتين في تكوينهما وفي أخلاق من يعيش فيهما، فالأولى بيئة أهل الإبل الصحراوية، والأخرى بيئة أهل الغنم الجبلية، والشاهد هو كون البيئة الطبيعية لها أثر كبير في تشكيل وعي الفقهاء وطريقتهم في التعاطي مع النصوص بما أكسبتهم البيئة من لين أو قسوة وطبعته على سلوكهم كأفراد يتفاعلون مع هذه البيئات.

ويمكننا أن نتساءل: ألا يمكن أن تكون البيئات شكّلت مع عوامل أخرى المذاهب الفقهية وأصولها وطرائق استدلالها؟

وللإجابة عن هذا التساؤل فلا شكّ أن دراسة البيئة الجغرافية للمجتمع الفقهي قد يكشف لنا علاقة هذه البيئة بخطابها الفقهي من حيث تناولها لمسائل دون أخرى، واهتمامها بقضايا دون غيرها بسبب ملابساتها الجغرافية لها في بيئتها.

بعض المذاهب والأفكار نشأت في ظروف استبدادية، أو سَمح ومهد لها الاستبداد واستفاد منها؛ فالإرجاء مثلًا والذي كان يسمى (دين الملوك) إنما نشأ في ظل القهر وحالة الإحباط التي أصيبت بها الأمة

رابعًا: حجاب الاستبداد:

الاستبداد: هو الانفراد بأمور الأمّة والتسلط عليها وقهرها وظلمها سياسيًا واقتصاديًا ودينيًا، بغضّ النظر عن قدر هذا الظلم والقهر ونوعه وطبيعته.

ومن مهمة الاستبداد في هذه الظروف أن يقدّم تعليمًا قادرًا على إنتاج أفراد وعلماء ومفكرين مُقَولبين لا يخرجون عن النسق السائد، ولا يمكنهم الرؤية إلا من خلال ما تسمح به مساحة الاستبداد، وهذا يعني أن تُصاغ أهداف التعليم والتربية على تقديس السلطة والتسليم لها، كالمفاهيم التي تتعلق بالسمع والطاعة والغلو فيها، وحق ولي الأمر... إلخ.

والعجيب أن بعضًا من المذاهب والأفكار نشأت في ظروف استبدادية، أو سَمح ومهد لها الاستبداد واستفاد منها؛ فالإرجاء مثلًا والذي كان يسمى (دين الملوك) إنما نشأ في ظل القهر وحالة الإحباط التي أصيبت بها الأمة.

المشكلة الكبرى التي يصنعها الاستبداد أنه يشوّه الواقع ويحوله إلى صورة غير طبيعية وغير صحيحة، فهو من خلال الإعلام المسيّس يعمد إلى أساليب مُلتوية ومتلونة تتفنَّن في صناعة أزمات فكرية، ويعمل على تخويف الناس على أمنهم وإيمانهم وحياتهم، وكم من العلم دُفن وتوارى بسبب هذا الاستبداد، ومن قرأ التاريخ الإسلامي ورأى ما عاناه العلماء من مشقة كلماتهم وفتاواهم، عرف الحجم الكبير الذي تشكّله البيئة الاستبدادية على فكر الفقيه ورؤيته، وكيف أن كثيرًا من القضايا يكون ظاهرها الفقه والعقيدة وباطنها رؤية سياسية تسيرها في الاتجاه المراد.

ختامًا: كشف الحُجُب نحو رؤية فقهية واسعة:

أولًا: نتائج ما قبل الحجاب:

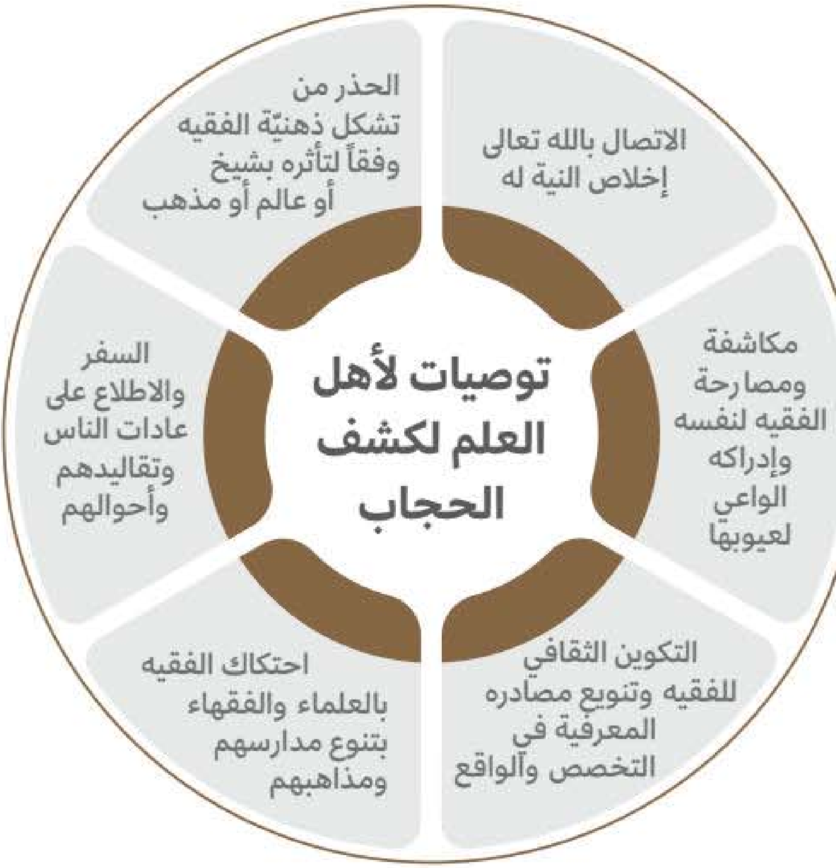
حتى يظلّ الفقه حيًا في حياة الناس وعقولهم لا بد من الإشارة لبعض المقترحات التي تسهم في بناء العقل الفقهي:

- التأكيد على مكانة العلماء الكبيرة من جهة، وبشريتهم من جهة أخرى.
- الفقهاء كغيرهم من البشر يخضعون للعوامل النفسية والوراثية والطبيعية والاجتماعية.
- الفقهاء يختلفون فيما بينهم في سِماتهم وطبائعهم وأنماطهم التي جبلوا عليها، وكل واحد منهم يميل بحكم طبيعته إلى ما يوافق هذه الطبيعة من الآراء والمذاهب في غالب أمره.
- البيئة التي يعيشها الفقيه بأصنافها الثلاثة: الطبيعة الجغرافية والاجتماعية والثقافية تطبع كثيرًا من سماتها في نفس الفقيه وفكره وسلوكه، وذلك مؤثّر لا محالة على فقهه واختياره وترجيحه.

ثانيًا: توصيات كشف الحجاب:

لعلها تسهم بشكل أو بآخر في إزاحة هذه الحُجُب وتقدم للفقيه شيئًا يستعين به في كشفها، ومنها:

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٤٩٩)، ومسلم (٥٢).



١. الاتصال بالله تعالى: فهي طريقة أخذها أهل العلم من رسولهم الأكرم ﷺ الذي كان يَسأل الله في قيام ليله أن يوفّقه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، وتناقلها العلماء يوصي بها بعضهم بعضًا، وفي هذا دلالة واضحة على هذه النفوس الشفافة التواقة للحق.

٢. مكاشفة ومصارحة الفقيه لنفسه وإدراكه الواعي لعيوبها: دون أن يكون في هذا الإدراك حرج أو خجل؛ فهذه المكاشفة هي التي تتيح له الغوص في أعماقها والدراية بخباياها والرجوع إلى الحق، وهو ليس بالأمر الهين إلا لمن كان يُدرك كيف يتعامل مع نفسه بصدق ووضوح.

٣. التكوين الثقافي للفقيه، فالفقيه بحاجة إلى أن ينوّع مصادره على اتجاهين:

» الأول: مستوى الفقه نفسه بالاطلاع على مصادر متنوعة فيه؛ فهذا الثراء هو الذي يقوي ملكته الفقهية ويمنحه أبعادًا لم يكن يعلم بها من قبل.

» الآخر: الاطلاع الجيد والإلمام بما يعينه من العلوم بأنواعها؛ لأن الفقه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بواقع الناس ومعاشهم وتنزيل الأحكام الشرعية على هذا الواقع، ومعرفته بواقع الناس وماهم فيه وطبائعهم وأخلاقهم من الأمور التي تعينه على تحري الصواب.

٤. احتكاك الفقيه بالعلماء والفقهاء بتنوع مدارسهم ومذاهبهم ومناظرتهم واطلاعه على أقوالهم يكسبه ما لا يمكن حصره من الفوائد التي قد يعذرهم بها فيما قالوا، أو يكتشف فيها أمرًا كان غائبًا عنه في تناوله لقضية معينة.

٥. السفر والاطلاع على عادات الناس وتقاليدهم ورؤية ما هم عليه من أحوال، وهذا كفيل بتفتح عقله وتفريقه بين العادات والعبادات والتقاليد والدين والثابت والمتغير.

٦. الحذر من تشكُّل ذهنيّة الفقيه وفقًا لتأثره بشيخ أو عالم أو مذهب وانصهاره فيه، فهذا يؤدي إلى تعطيل القدرات العقلية عن النمو ويظلّ نموها محدودًا بحدود الشيخ أو المذهب، ولا يكاد يبصر الحق إلا من منظارهما، فإذا قوبل بقول آخر استنكره ونفر عنه لا لدليل وحجة بل لأن ذهنيته قد تبرمجت بطريقة لا تقبل غير ما غُذّيت به.



لمحات في فقه التزكية

أ.جهاد بن عبد الوهاب خيتي(*)

للتزكية منزلة عظيمة ومكانة رفيعة، فبها يُنال رضا الرحمن، ويتحقّق الفوز بالجنان، وبها يكمُل إسلام المرء ويتذوّق حلاوة الإيمان ويصل إلى مرتبة الإحسان. وفي هذا المقال وقفاتٌ سريعةٌ مع التزكية: معناها، وأهميَّتها، ومجالاتها، والطريق إليها.

أطولُ قسم في القرآن الكريم هو ذلك القسمُ في مطلع سورة الشمس، حيث أقسم ﷻ بالشمس، وبضيائها، وبالقمر، وبالنهار، وبالليل، وبالسماء، وبِبُنيانها الذي أحكمه الله، وبالأرض، وببسْطِها الذي أبدعه الله، وبالنفس، وبتسويتها على الفطرة وتجلية طريق الخير وطريق الشرّ أمامَها.

هذه الأقسام الأحد عشر.. جوابُها شيء واحد، يتمثّل في الحقيقة الكبرى والغاية التي خَلَق الله الإنسان من أجلها، وسخّر له ما في هذا الكون ليُعينه على القيام بها، وهي عبادته ﷻ والتقرّب إليه بما يرضيه؛ فالفلاح والفوز في الدنيا والآخرة لمن عَبَدَ الله وأطاعه واتّقاه، والخيبة والخسران في الدنيا والآخرة لمن استكبر وسلك طريق الكفر والفجور والعصيان.

وقد ورد التعبير في هذه السورة عن هذه الغاية بأسمى صورها، وهي صورة التزكية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشمس: ٩-١٠]. فالفوزُ والفلاحُ في الدنيا والآخرة لمن حقّق هذه الغاية فزكّى نفسه بالإيمان والطاعة، وطهّرها من الآثام والرذائل، والخيبةُ والخسرانُ والهوانُ لمن قَصُرَ عن الوصول إلى هذه الغاية فدسّى نفسه بأنْ حجبها عن الهدى وحطّ من شأنها بالكفر والفسوق والعصيان.

معنى التزكية:

التزكية في اللغة النماءُ والزيادةُ، قال ابن فارس رحمه الله: «الزاء والكاف والحرف المعتلّ أصل يدلّ على نماء وزيادة... وسُمّيت الزكاة بهذا الاسم؛ لأنّه يُرجى بها زكاء المال، وهو زيادته ونماؤه»(١).

(*) المشرف العام على موقع (على بصيرة)، ماجستير في السنة وعلوم الحديث.

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس (٣/١٧) بتصرف يسير.

ومن معاني التزكية: التطهيرُ، فإنّ من لوازم النماء والزيادة: التخلّص من النقائص والشرور، قال ابن فارس: «وسُمّيت الزكاة بهذا الاسم لأنّها طهارة، قالوا: وحجّة ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾. والأصل في ذلك كلّه راجع إلى هذين المعنيين، وهما: النماء والطهارة»[1].

قال ابن الأثير ﷺ: «قد تكرّر في الحديث ذكر «الزكاة والتزكية»، وأصل الزكاة في اللغة: الطهارةُ والنّماءُ والبركةُ والمدحُ، وكلّ ذلك قد استُعمِل في القرآن والحديث»[2].

وبهذين المعنيين فسّر المفسّرون قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾، قال الطبري ﷺ: «قد أفلح من زكى الله نفسه، فكثّر تطهيرها من الكفر والمعاصي، وأصلحها بالصالحات من الأعمال»[3]، وقال ابن كثير ﷺ: «أفلح من زكّى نفسه بطاعة الله، وطهّرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل»[4].

وعلى هذا فإنّ تزكية النفس تشمل أمرين اثنين لا ينفكّان عن بعضهما:

١. إصلاحها وتنميتها بالإيمان والطاعات والأخلاق الحميدة.

٢. تطهيرها من الكفر والآثام والأخلاق الرذيلة.

منزلة التزكية:

شأن التزكية كبير، ومنزلتها عظيمة، ومكانتها رفيعة، وليس أدلّ على ذلك من أنّ الله ﷻ جعلها طريقًا للفلاح، وشرّف بعض عباده بالاتصاف بها[5]، وامتنّ على المؤمنين بأن يسّر سبيل الوصول إليها.

ومما يدلّ على عظيم منزلتها ومكانتها وأهمّيتها:

١. أنّها الركيزة الأساس لدعوة الرسل عليهم السلام، قال الله تعالى آمرًا موسى ﷺ: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾[النازعات: ١٧-١٩].

وكان من دعاء أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ لأمّة محمد ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة: ١٢٩].

وعندما سأل هرقل أبا سفيان ﷺ -قبل أن يُسلم- عمّا جاء به رسول الله ﷺ، قال: (يأمُرنا أن نعبدَ اللهَ وحدَه لا نُشرك به شيئًا، وينهانا عمّا كان يعبد آباؤنا، ويأمُرنا بالصّلاةِ، والصّدقةِ، والعَفافِ، والوفاءِ بالعهد، وأداءِ الأمانة)[6]، وهذه أعمالٌ تزكو بها النفس.

> **شأن التزكية كبير، ومنزلتها عظيمة، ومكانتها رفيعة، وليس أدلّ على ذلك من أنّ الله ﷻ جعلها طريقًا للفلاح، وشرّف بعض عباده بالاتصاف بها، وامتنّ على المؤمنين بأن يسّر سبيل الوصول إليها**

٢. أنّ التزكية تعني العودة إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها قبل أن ينحرفوا عنها ويسلكوا سبل الغواية والشرك، قال تعالى ممتنًّا ببعثة محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران: ١٦٤] ففي هذه الآية -والآية الثانية من سورة الجمعة- قدّم ﷻ ذكر التزكية؛ لأنّها تعني تطهير النفس من الشرك والعودة بها إلى الفطرة التي فطر الناس عليها، ثم يأتي بعدها التعليم، قال ابن عاشور رحمه الله: «وابتُدِئَ بالتلاوة لأنّ أوّلَ تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي، وثُنِّيَ بالتزكية؛ لأنّ ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو الشرك وما يَعْلق به من مساوئ الأعمال والطباع، وعُقِّبَ بذكر تعليمهم الكتاب؛ لأنّ الكتاب بعد إبلاغه إليهم تُبَيِّنُ لهم مقاصده ومعانيه... وتعليم

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس (٣/١٧-١٨) بتصرّف يسير.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/٣٠٧).
(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٢٤/ ٤٤٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/٤٠٠).
(٥) قال سبحانه في صفة يحيى عليه السلام: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾[مريم: ١٣]، وقال في صفة عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾[مريم: ١٩].
(٦) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٤١) ومسلم (١٧٧٣-٧٤).

الحكمة هو غاية ذلك كلّه لأنّ مَن تدبّر القرآن وعمل به وفهم خفاياه نالَ الحكمةَ»[1].

٣. أنّ الوصول إلى التزكية يعني تحقيق التقوى التي أوصى الله بها الأولين والآخرين، وذكرها في كتابه في أكثر من مئتين وخمسين موضعًا، ورتّب عليها: المحبّة والولاية، والقبول والمعيّة، والمغفرة والجنّة، والتوفيق والرزق، وقد بيّن ﷻ أنّه خلق النفس وبيّن لها طريق التقوى وطريق الفجور، فمن اختار طريق التقوى فقد زكّى نفسه، قال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-٩].

٤. أنّ تحقيق التزكية من أكبر الأمور المعينة على عمارة الأرض والنهضة بالأمّة، وهي لا تحصل إلّا بعبادة الله والالتزام بشرعه، وحسن التعامل مع خلقه. فالتزكية -في جانبها العملي- تعني تطهير القلب من أدوائه التي تدفع إلى سيّء الأخلاق والأعمال كالكِبْر الذي يؤدي إلى احتقار الناس ويمنع من قبول الحقّ، والظلم الذي هو أساس الخراب ورأس البلاء، وأنواع الفساد التي تمنع من قيام الدُّول وتُؤذِن بحلول العقوبات الخاصّة والعامّة.

الطريق إلى التزكية:

التزكية فضلٌ من الله ورحمةٌ يهدي إليها من يشاء من عباده الذين علم فيهم خيرًا وإقبالًا على طاعته، واجتنابًا لمعصيته، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور: ٢١]. قال ابن عباس ﷺ: «لولا فضل الله ورحمته ما اهتدى منكم من الخلائق لشيء من الخير ينفع به نفسه، ولم يتّق شيئًا من الشرّ يدفعه عن نفسه»[2].

> **التزكية فضلٌ من الله ورحمةٌ يهدي إليها من يشاء من عباده الذين علم فيهم خيرًا وإقبالًا على طاعته، واجتنابًا لمعصيته**

> **التزكية عملٌ يتطلّب التكرار والديمومة، وهي ليست مجرّد دعوى باللسان، كما أنّها لا تحصل بمدح الناس وثنائهم؛ فضلًا عن مدح النفس والثناء عليها.**

والطريق إلى التزكية لا يكون إلا من خلال الأخذ بالأسباب الموافقة للشرع، واتباع هدي النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف: ١١٠]، وقال أيضًا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. قال ابنُ القيِّم ﷺ: «وتزكيةُ النفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشدّ، فمن زكّى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل؛ فهو كالمريض الذي عالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفةِ الطبيبِ؟ فالرسل أطبّاء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم»[3].

والتزكية عملٌ يتطلّب التكرار والديمومة، وهي ليست مجرّد دعوى باللسان، كما أنّها لا تحصل بمدح الناس وثنائهم؛ فضلًا عن مدح النفس والثناء عليها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[النساء: ٤٩]. وقد نهى النبي ﷺ عن تزكية الناس في وجوههم؛ لئلا يَدخل العُجب إلى نفوسهم؛ فيكون ذلك سببًا في انحرافهم، فعن أبي بَكْرَةَ ﷺ قال: أثْنى رجلٌ على رجلٍ عند النبيِّ ﷺ فقالَ: (وَيلَك قَطعتَ عُنقَ صاحِبِك، قَطعتَ عُنقَ صاحِبِك) مرارًا، ثم قال: (مَن كان منكم مادِحًا أخاه لا محالة، فَليَقُل أحسَب فلانًا، والله حَسِيبُه، ولا أُزكِّي على الله أحدًا، أحْسَبه كذا وكذا، إن كانَ يعلمُ ذلكَ منه)[4].

مجالات التزكية:

مجالات التزكية تشمل أبواب الشريعة كلّها: عقيدة وعبادات ومعاملات.

ففي مجال العقيدة: تكون التزكية بتعظيم الله في القلب، وإخلاص العمل له سبحانه، وتصحيح

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٠٩/٢٨).
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١٣٥/١٩).
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم (٣٠٠/٢).
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٦٢) ومسلم (٦٥-٣٠٠٠).

مكانة التزكية ومنزلتها

١	٢	٣	٤
هي الركيزة الأساس لدعوة الرسل عليهم السلام	التزكية تعني العودة إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها	الوصول إلى التزكية يعني تحقيق التقوى التي أوصانا الله بها	تحقيق التزكية من أكبر الأمور المعينة على عمارة الأرض والنهضة بالأمّة

النيّة عند كلّ عمل، واستكمال أركان الإيمان، والبراءة من الكفر والشرك والنفاق وكلّ ما يخلّ بالإيمان.

وفي مجال العبادات: تكون بفعل ما أمر الله به من الفرائض، والتقرّب إليه بالنوافل من السنن والمستحبّات، وتكون بترك ما نهى الله عنه من المحرّمات، وما هو دونها من المكروهات، قال ابن تيمية رحمه الله: «وترك المكروه متعيّنٌ كذلك، به تزكو النفس»[(١)]؛ فالمكروه وإن كان النهي عنه غَير جازم إلّا أنّ اجتنابه دليلٌ على صدق الاستجابة لله تعالى ورسوله ﷺ، وفيه البراءة من الشّبهات، ومن الاقتراب من المحرّم؛ فإنّ مَن اعتاد فعل المكروه هانَ عليه فعل المحرّم، بل إنّ ترك المكروه مقدّم على فعل المندوب[(٢)].

> **«وتزكيةُ النفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشدّ، فمن زكّى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل؛ فهو كالمريض الذي عالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفةِ الطبيبِ؟ فالرسل أطبّاء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم»**
>
> ابنُ القيّم رحمه الله

وفي مجال المعاملات: تكون التزكية:

١. بالتزام حدود الله وشرائعه التي نظّم بها علاقات الناس وتعاملاتهم.

٢. وبالتحلّي بالأخلاق الحسنة، والتأدّب بالآداب الجميلة؛ فإنّها من شُعَب الإيمان.

٣. وبالابتعاد عن الأخلاق السيئة والأفعال القبيحة؛ فإنّها من شعَب النفاق.

٤. وبالفضل والإحسان إلى الخلق بأنواع الإحسان، والعفو، والسماحة والمسامحة، والإقالة، وغيرها.

كيف تزكو النفس؟

طرقُ تزكية النفس كثيرةٌ، أطال أهل العلم في ذكرها وبيان تفاصيلها وشرحِ مراتبها، وسأقتصر -في هذا المقام- على ذكر أهمّها مما يمكن اعتباره «كلّياتٍ» تندرج تحتها كثير من «الجزئيات».

١. **أوّلها وأعظمها: العلم بالله تعالى**، فبه يحصل تعظيم الله ومحبّته وخشيته، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٨]. وما يتبع ذلك من الإقرار لله بالتوحيد؛ فإنّ «أصل زكاة النفس بالتوحيد وإخلاص الدين لله»[(٣)]، ومن أعظم طرق معرفة الله تعالى: قراءة القرآن وتدبّره، فإنّ القرآن إمّا خبر عن

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٦٥٣/٧).

(٢) ينظر: القواعد للمقري (٤٤٣/٢) قاعدة رقم (٢٠١)، و«البحر الرائق شرح كنز الدقائق»، لابن نُجيم (٧٩/٢)، و«ردّ المحتار على الدّر المختار»، لابن عابدين (٥٦/٢).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٩٩/٧).

الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وإمّا دعوة إلى توحيده وعبادته، وإمّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وإمّا خبر عن عقابه لمن خرج عن توحيده وطاعته[١].

٢. **إدراكُ الحقائقِ الكبرى في هذا الكون: حقيقةِ الوجودِ وحقيقةِ الدنيا وحقيقةِ الإنسان**، ويحصل هذا الإدراك بالتفكّر في آيات الله ومخلوقاته، وفي سننه التي أودعها في هذا الكون، وبالتفكّر في النفس والنِّعم التي أنعم الله بها عليها، وفي العيوب والنقائص التي تعتريها.

وهذا كلّه من شأنه أن:

- يفتح عين الإنسان وفكره على حقيقة العبودية لله تعالى، ويقود للعمل بما يحبّه ويرضاه.
- ويدفعه لاستثمار هذه النعم في تزكية نفسه.
- وللعمل على التخلّص من عيوبها التي تتسبّب في تدسيتها وظلمها وإهانتها، وفي مقدّمتها: الجهل والغرور والتكبّر.
- ومن شأنه -كذلك- أن يُعينه على الصبر على أقدار الله وما يصيبه من البلايا، قال ابن تيمية ﵀: «النفس لا تزكو وتصلحُ حتى تُمحّص بالبلاء، كالذهب الذي لا يخلص جيّده من رديئه حتى يفتتن في كير الامتحان»[٢]. وقال ابن القيم ﵀: «ما يقدّره الله من المصائب والآلام فيها من الحكم ما لا يحصيه إلا هو، من تزكية النفوس وتطهيرها، والردع والزجر، وتعريف قدْر العاقبة، وامتحان الخلق، ليظهر من يعبدُه على السراء والضراء ممن يعبده على حرف، إلى أضعاف ذلك من الحكم»[٣].

٣. **الاهتمام بصلاح القلب وطهارته ونقائه،** فهو مكان العلم والتدبّر، وهو القائد للجوارح، قال رسول الله ﷺ: (ألا وإنَّ في الجسدِ مُضْغةً، إذا صَلُحَت صَلُحَ الجسدُ كُلّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجسدُ كله، ألا وهي القلب)[٤]، لذا فقد كان النبي ﷺ (يُكثِرُ أن يقولَ: يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبي على دِينك)[٥].

كما أنّ القلب هو محلّ الإخلاص، ومحلّ العبادات القلبية كمحبة الله، وتعظيمه، وخشيته، والتوكّل عليه. والعنايةُ به سبب رضوان الله ودخول الجنّة: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩].

> **من حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أنّه بنى دينه على خمس عبادات، كلّها تزكية للنفوس؛ فمن اعتنى بهذه الأركان حصلت له التزكية**

٤. **العمل الصالح**، والمراد به: قيام الجوارح بالعبادات التي افترضها الله تعالى على أحسن وجه، مع صلاح القلب وحضوره وإخلاصه وخشيته، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرِ﴾[فاطر:١٨].

ومن حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أنّه بنى دينه على خمس عبادات، كلّها تزكية للنفوس؛ فمن اعتنى بهذه الأركان حصلت له التزكية، وصحّ له سائر دينه الذي بُني على هذه الأركان:

فالشهادتان: هما إعلان التوحيد لله والخلوص من الشرك، واتباع النبي ﷺ..

والصلاة: صلة بالله تعالى وقُربة منه، وحريّ بمن يقف بين يدي ربّه يسأله الهداية ويركع ويسجد له ويذكره ويتضرّع إليه أن تزكو نفسه. وفي إقامة الصلوات الخمس انتهاءٌ عن الفحشاء والمنكر: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥]، وفيها طهارة من الآثام (يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا)[٦].

وفي إيتاء الزكاة: تقديمُ أمر الله على حبّ المال، وتطهيرُ النفس من الشحّ والحرص على الدنيا،

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/٤١٧-٤١٨).
(٢) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، لابن قاسم (١/١٩٥).
(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، للبعلي (٢٦١) بتصرّف يسير.
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٠٧-١٥٩٩).
(٥) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) وقال: حديث حسن، وأحمد (١٢١٠٧).
(٦) أخرجه مسلم (٢٨٣-٦٦٧).



وفعلُ ما يحبّه الله تعالى من نفع خلقه، وفيها بركة المال ونماؤه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة:١٠٣].

> **من الأسباب المعينة على إحسان العمل والوصول إلى التزكية: الاجتهاد في العمل الذي يجد المرء نفسه فيه، وأنه قادر من خلاله على نفع نفسه وغيره**

والصوم: مفتاحُ تحصيلِ التقوى، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والحج: يجمع أنواعًا من العبادات القلبية والبدنية والمالية، وجزاؤه: تزكية المسلم بتطهيره من ذنوبه كلّها، قال حبيب الله ﷺ: (مَن حجَّ هذا البيتَ، فلم يَرفُث، ولم يَفسُق، رَجَعَ كما وَلدتهُ أُمُّه)[١].

ومن العمل الصالح: التقرّب إلى الله بالنوافل؛ فهي جالبة لمحبّة الله، قال ﷻ في الحديث القدسي: (وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزالُ عَبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أُحِبَّه)[٢]، وهي سياج لحفظ الفرائض وتكميلها، وقد «كان صدر الصحابة ومن تبعهم يواظبون على السنن مواظبتهم على الفرائض»[٣]، و«الانقطاع عنها عظيمُ الوقع عند ذوي الدين»[٤]، و«الاستمرار على تركها خذلانٌ»[٥] وبالتالي نقصٌ في التزكية.

وعلى من يسعى إلى التزكية بالأعمال الصالحة أن يجتهد على وجه الخصوص في العمل الذي يجد نفسه فيه، فإنّ عبد الله العمري العابد كتب إلى الإمام مالك يحضّه على الانفراد والعمل، فأجابه مالك رحمه الله بقوله: «إنّ الله قسَّم الأعمالَ كما قسَّم الأرزاق، فَرُبَّ رجُلٍ فُتح له في الصلاة، ولم يُفتَح له في الصوم، وآخرُ فُتح له في الصدقةِ، ولم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨١٩)، ومسلم (١٣٥٠).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٣/٢٦٥).
(٤) نهاية المطلب في دراية المذهب، للجويني (ص ١٦٧).
(٥) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٨/٦٦).

يُفتَح له في الصوم، وآخرُ فُتح له في الجهادِ. فنشرُ العلم من أفضلِ أعمال البرِّ، وقد رضيتُ بما فُتحَ لي فيه، وأرجو أنْ يكون كِلانا على خيرٍ وبرٍّ»[1].

٥. **التخلّق بالأخلاق الفاضلة والتأدب بالآداب الشرعية**، فتزكية النفس من خلال التزام مكارم الأخلاقِ من أسسِ رسالة الإسلام، قال النبي ﷺ: (إنَّما بُعثتُ لِأتمِّمَ صالحَ الأخلاقِ)[2].

ومن إشارات القرآن الكريم إلى أنّ تزكية النفس تحصل بهذا الالتزام قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢٨][3].

٦. **البراءة من الكفر والشرك**، فإنّه لا شرّ بعد الكفر والشرك بالله تعالى، قال ﷻ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

قال ابن تيمية ﷺ في تفسير سورة (الكافرون): «أي أنا بريء من هذا، متنزّه عنه، مزكٍّ لنفسي منه؛ فإنّ الشرك أعظم ما تنجّس به النفس، وأعظمُ تزكيةِ النفسِ وتطهيرها: تزكيتُها منه وتطهيرها منه»[4].

٧. **اجتناب المعاصي كبيرها وصغيرها**، وفي اجتنابها: امتثالٌ لأمر الله وأمر رسوله ﷺ الذي يقول: (مَا نَهيتُكم عنه فاجتَنبوه، وما أمرتُكم به فافعلوا منه ما استطعتم)[5].

وفي اجتناب المعاصي فائدة أخرى، ألا وهي: إفساح المجال للخير لينمو في النفس؛ قال ابن تيمية رحمه الله: «لن ينمو الخير إلا بترك الشرّ، والزرعُ لا يزكو حتى يُزال عنه الدغل، فكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يُزال عنها ما يناقضها، ولا يكون الرجل متزكّيًا إلّا مَعَ ترك الشّرّ؛ فَإِنَّهُ يدنس النَّفس ويدسّيها»[6].

وقد بيّن ﷺ أنّ اجتناب المعاصي من أهمّ ما يزكّي النفس:

فمن المعاصي التي ربط الله بين اجتنابها وحصول التزكية: إطلاق البصر إلى الحرام والفاحشة، قال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

> **اجتناب المعاصي يشرع الأبواب للخير لينمو في النفس؛ فتزكو**

ومنها: اجتناب الظلم، وبالأخصّ ظلم الضعفاء من النساء والأيتام وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٢].

ومنها: كفّ اللسان، قال رسول الله ﷺ: (وهل يَكُبُّ الناسَ في النارِ على وجوهِهم -أو على مَنَاخِرِهم- إلا حصائدُ ألسنتهم)[7].

ومن أكثر ما يعين على ترك المعاصي: مراقبة الله تعالى، التي تنشأ من تعظيم الله ﷻ، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: (ثلاثٌ مَن فَعلهنَّ فَقَدَ طَعِمَ طَعمَ الإيمان: مَن عَبَد الله وحده؛ فإنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاةَ مالِه طَيِّبَةً بها نَفسُه ... وزكَّى عبدٌ نفسه، فقال رجل: وَمَا تَزكيةُ المرءِ نَفسَه يا رسولَ اللهِ؟ قال: يعلمُ أنَّ اللهَ معه حيثُما كانَ)[8].

٨. **محاسبةُ النفس ولومها**، وذلك إنّما يكون بالاعتراف أمام الله بخطئها وتقصيرها وظلمها، والتوبة الصادقة العاجلة، وتكرار التوبة عند

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر (١٨٥/٧)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي (١١٤/٨).

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣).

(٣) وارتباط الرجوع عند عدم الإذن بالتزكية؛ راجع إلى ما يحمله من معانٍ سامية: كالتواضع، وإعذار الناس، ومراعاة أحوالهم، وصفاء القلب تجاههم. قال قتادة رحمه الله: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي ارجع فأرجع وأنا مُغْتَبِط. جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١٥٠/١٩).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٥٦٠/١٦).

(٥) أخرجه مسلم (١٣٠-١٣٣٧).

(٦) الزهد والورع والعبادة، لابن تيمية (٦٢).

(٧) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢٠١٦).

(٨) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧٣٥١)، وفي شعب الإيمان (٣٠٢٦).

وسائل تزكية النفس

- العلم بالله تعالى وتعظيمه وتوحيده
- إدراكُ حقائق الوجود الكبرى، من خلال التفكّر في آيات الله ومخلوقاته وسننه
- الاهتمام بصلاح القلب وطهارته ونقائه
- القيام بالفرائض والتقرّب بالنوافل
- التخلّق بالأخلاق الفاضلة والتأدب بالآداب الشرعية
- البراءة من الكفر والشرك
- اجتناب المعاصي كبيرها وصغيرها
- مراقبة الله عز وجل ومحاسبةُ النفس ولومها
- الاجتهاد في تحقيق التزكية مع الحرص والسعي ومجاهدة النفس
- سؤال الله عز وجل والتضرّع إليه لنيلها بصدق

كلّ ذنب، والإكثار من الاستغفار والإنابة في كل حين، وقد علّم النبي ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ دعاءً يدعو به في صلاته، فقال له: (قُل: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني، إنك أنتَ الغفورُ الرحيم)[١].

> **من حِكم الابتلاء: تزكية النفوس وتطهيرها وتمحيصها**

قال ابن القيمّ رحمه الله: «زكاةُ النفس وطهارتُها موقوفةٌ على محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهُر ولا تصلحُ البتَّةَ إلا بمحاسبتها ... فبمحاسبتها يطّلع على عيوبها ونقائصِها ، فيمكنُه السعيُ في إصلاحها»[٢].

٩. **الاجتهاد والحرص والسعي ومجاهدة النفس**، قال رسول الله ﷺ: (احرِصْ على ما ينفَعُك، واستَعِنْ باللهِ ولا تَعْجَزْ)[٣].

فلا بد لمن أراد تزكية نفسه من بذل الجهد لتحقيقها بفعل أسبابها الممكنة، والاستعانة بمسبِّب الأسباب، وهو اللهُ ﷻ، وترك التواني والكسل؛ فإنّهما من علامات الضعف، فإن فاته -رغم حرصه واجتهاده- شيء فلا يكون ذلك سببًا لتقاعسه، بل يسلّم لقدر الله ويجدّد نشاطه وسعيه، قال رسول الله ﷺ: (فإنْ غَلَبَكَ أمرٌ، فَقُل: قَدَّرَ اللهُ وما شاءَ صَنَعَ، وإيَّاك واللَّو، فإنَّ اللَّو تُفتَحُ مِنَ الشّيطان)[٤].

١٠. **دعاء الله والتضرّع إليه سبحانه**، فإنّ من أعظم أسباب التزكية أن يسأل العبدُ ربّه ﷻ ويتضرَّع إليه لينالها، ويصدق في الافتقار إليه وطلب العون منه، كما كان حبيبنا ﷺ يفعل، فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

(اللَّهمَّ آتِ نَفسي تَقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ مَن زَكَّاها، أنتَ وَليُّها ومَولاها)[٥].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٢٦)، ومسلم (٤٨-٢٧٠٥).
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٤٧٧/٢).
(٣) أخرجه مسلم (٣٤-٢٦٦٤).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤١٦٨)، وأحمد (٨٧٩١)، وأصله في الصحيح.
(٥) أخرجه مسلم (٧٣-٢٧٢٢).



قضايا معاصرة

أثر المستشرقين على الفكر الإسلامي

د.محمد بن سليمان الفارس(*)

كان ظهور الاستشراق والمستشرقين علامةً فارقةً في تاريخ الحضارتين الإسلامية والأوربية؛ فبينما كان عاملًا مهمًا في نقل خلاصة الحضارة الإسلامية لأوروبا خلال عصور النهضة الإسلامية، فأسهم في ظهور النهضة الأوربية وتطورها، كان من عوامل الطعن في الحضارة الإسلامية حينما ضعفت الأمة الإسلامية وتراجعت في عدد من الميادين.. مع التسليم بوجود مستشرقين منصفين، وآخرين كانت لهم بحوث ومنتجات إيجابية. وفي هذا المقال إطلالة على أهم آثار المستشرقين على الفكر الإسلامي المعاصر.

مفهوم الاستشراق:

الاستشراق (Orientalism) باللغة الإنكليزية مشتق من الشرق عكس الغرب، وهو يعني طلب علوم الشرق.

ومن هنا تدلُّ كلمة الاستشراق على الاهتمام بما يحتوي عليه الشرق من علوم ومعارف وثقافات وميزات وسمات حضارية متنوعة.

يقول إدوارد سعيد: «إن لفظ الاستشراق لفظ أكاديمي صرف، والمستشرق هو كل من يدرس أو يكتب عن الشرق أو يبحث فيه، وكل ما يعمله هذا المستشرق يسمى استشراقًا.. وهو بإيجاز أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه»[١].

والاستشراق أيضًا يعنى الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام. وهذا المعنى هو الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي الإسلامي عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق[٢].

والمستشرق هو الإنسان الذي وهب نفسه للبحث والاهتمام بما يتعلق بالشرق، وما يدور فيه من علوم ومعارف، وقيم وحضارات، وفى مجالات مختلفة[٣].

(*) أستاذ علم الاجتماع بجامعة ماردين آرتوكلو، مدرس سابق بجامعة حمص.

(١) الاستشراق، لإدوارد سعيد ص (٤٤).

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د.محمود زقزوق ص (١٨).

(٣) المصدر السابق ص (١٨).

إسهامات المستشرقين العلمية:

بحث المستشرقون في التاريخ العربي والإسلامي، وعلم الكلام، والشريعة، والفلسفة، والتصوف، وتاريخ اللغة العربية وآدابها، والدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم والسنة النبوية، والنحو العربي، وفقه اللغة العربية. وبلغ ما ألفوه منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ستين ألف كتاب[١].

وبينما يوجد لبعضهم مؤلفات ذات فائدة علمية للباحثين الغربيين والمسلمين على السواء، كالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، يوجد لبعضهم مؤلفاتٌ تمتلئ بالطعن في الإسلام وتمتلئ بالأكاذيب والافتراءات التي ليس لها في سوق العلم والمعرفة رواجٌ ولا نصيب.

> **لبعض المستشرقين مؤلفات ذات فائدة علمية للباحثين الغربيين والمسلمين على السواء، كالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ولبعضهم الآخر مؤلفاتٌ تمتلئ بالطعن والأكاذيب والافتراءات**

ويوجد بعض المستشرقين المنصفين للحضارة الإسلامية مثل (رينو) الذي ترجم جغرافية أبي الفداء في أواسط القرن الماضي، و(دوزي) الذي كتب عن قرون الأنوار العربية في إسبانيا، و(سيديو) الذي بذل جهده من أجل أن يحقق للفلكي والمهندس العربي أبي الوفاء لقب المكتشف لما يسمى في علم الهيئة: القاعدة الثانية لحركة القمر[٢]، وقد كانت بحوثهم من أجل خدمة مجتمعهم الغربي في المقام الأول.

ولكي ندرك هذا الأثر الاستشراقي على صورته الحقيقية في مجتمعنا الإسلامي، يجب أن نعيد هذا النوع من الاستشراق إلى مصادره التاريخية. فأوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها: فكانت الأولى في مرحلة القرون الوسطى، والهدف منها اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التي أتاحت لها فعلًا الوصول إلى النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر[٣].

والمرحلة الثانية: في العصر الحديث ومرحلة الاستعمار، حيث استكشفت الفكر الإسلامي مرة أخرى للسياسة لا الفكر؛ فقد أرادت أن تكون خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب لسلطانها[٤]، إلا أن هذا اللقاء الجديد (بين الشرق والغرب) وقع في ملابسات تاريخية لم يكن فيها العلم الإسلامي علمًا حيًا يُنقل من أفواه الأساتذة مباشرة ومن كتبهم المعاصرة بل أصبح أشبه شيءٍ بعلم الآثار يكتشفه الباحثون الأوروبيون بحكم الصدفة ويصدُقون أو لا يصدُقون في نقله، ثم ينسبونه لأصحابه من العلماء المسلمين كالمستشرق (سيديو) و(غوستاف لوبون). أو ينسبونه لأنفسهم أو لأحد الأوروبيين، فهكذا كانت اكتشافات كبرى نُسبت لغير أصحابها، مثل دورة الدم الصغرى للإنجليزي (وليام هارفي) بينما كان صاحبها هو الطبيب ابن النفيس[٥].

كما تجدر الملاحظة أيضًا أن العالم الإسلامي أصبح في هذه الظروف يعاني من الصدمة التي أصابته بها الثقافة الغربية، ويعاني بسببها على وجه الخصوص أثرين: مواجهة مركّبِ نقصٍ محسوس من ناحية، ومحاولة التغلب عليه من ناحية أُخرى حتى بالوسائل التافهة، لقد أحدثت هذه الصدمة عند بعض المثقفين المسلمين شبهَ شللٍ في حصانتهم الثقافية.

حاصلُ الأمر أن الصدمة التي حصلت للضمير الإسلامي منذ القرن التاسع عشر تجاه الحضارة الغربية كانت محسوسةً في عالم أفكارنا على وجه الخصوص، وفي مجال الأفكار العلمية بالذات، واستَعَرَتِ الدعوات للعلمانية التي هي بالنسبة للفكر الإسلامي عمليةُ تعويضٍ في الميدان الذي شعر فيه بتحدي الحضارة الغربية.

تحاول طائفة من المستشرقين جعل الحضارة الإسلامية العربية قاصرةً على مجرد تبليغ ما أنتجه

---

(١) الاستشراق: أخطر تحدٍ للإسلام، شاكر شوق ص (٧٣).
(٢) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، لمالك بن نبي ص (٧).
(٣) المصدر السابق ص (٩).
(٤) المصدر السابق ص (٩).
(٥) المصدر السابق ص (١٠).

اليونان والرومان، في محاولة من هؤلاء المستشرقين بإيعازٍ واضحٍ من أوساط استعمارية، تحت رداء تقدميةٍ جوفاء تحاول سلب الإسلام من كل قيمة حضارية، بل تنسب له حالة التخلف الراهنة في العالم الإسلامي.

> **تحاول طائفة من المستشرقين جعل الحضارة الإسلامية قاصرةً على تبليغ ما أنتجه اليونان والرومان، في محاولة منهم لسلب الإسلام من قيمه الحضارية، وينسبون له حالة التخلف الراهنة في العالم الإسلامي**

ولا شك أن بعض المثقفين بحسن نية أو بقصدٍ غدَوا آلاتٍ مسخَّرةً بين أيدي متخصصي الصراع الفكري، سائرين على أثر أساتذتهم الغربيين، لا يختلفون معهم إلا في مهارة الأسلوب والتزوير في الصيغة، ويلتقون مع أساتذتهم في الانتقاص من سوابق الفكر الإسلامي، ولكن يمتازون في إحاطة مستقبله بالريبة بتلك الثرثرة التقدمية كما نجد ذلك واضحًا في كتاب (الأيديولوجيات العربية في محضر الغرب) للمراكشي وبتقديم من مكسيم رودنسون[١].

نماذج للانحراف الفكري تأثرًا بالفكر الاستشراقي:

وسنعرض هنا لأبرز الكتب التي تشكّل تجليًا واضحًا لمدى التأثُّر بفكر وإنتاج المستشرقين، والتي تركت أثرها في الساحة الفكرية والثقافية لدى المسلمين:

«الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية» لخليل عبد الكريم الناصر: للكاتب كتب متعددة غير هذا أثارت زوبعة في الحياة الثقافية في مصر بسبب جرأته على الثوابت في الشريعة الإسلامية، يقول في كتابه هذا: «إن هذه الشريعة التي ينادون بها هي مجرد تعاليم كان يقول ويأخذ بها عرب الجاهلية، ثم جاء محمد، فأخذ هذه التعاليم، وأعمل فيها عقله وفكره حتى بدت وكأنها شيء جديد». وقال: «هل تصلح هذه التعاليم التي كان يطبقها بدو الصحراء قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا لكي تحكمنا اليوم؟»[٢]، ويذهب أبعدَ من ذلك حين يشكّك في صحة القرآن من خلال تمييزه بين القرآن المتلو والقرآن المكتوب في عهد عثمان بن عفان ﷺ فيقول: «هذه المفارقة الصارخة تدعونا أو تضطرنا للتمييز بين القرآن المقروء أو المتلوّ.. وبين القرآن المكتوب الذي دُوّن إبّان عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان الأموي.. أما القرآن المدوَّن أو المكتوب فتغلّفه القداسة.. تحوطه أسيجة منيعة وأسوار عالية يقف عليها حجّاب وسدنة مرازبة يحولون بين أي إنسان والاقتراب منه.. وكنتيجة حتمية له فإن التفاسير الحديثة ليست للقرآن المجيد إنما هي للتفاسير التراثية السلفية القديمة التي مرت عليها قرون»[٣]، ومعنى قوله هذا: أنَّ القرآن الذي أنزله الله غير المقروء في المصاحف الآن، وأنه من فعل عثمان بن عفان ﷺ.

فهو يؤكد على فكرة تاريخية القرآن، وأنه منتج ثقافي عَمِل عليه النبي ﷺ، وهو ما نادت به العلمانية حيث ترفع القدسية عن أي نص، وتتعامل مع جميع النصوص المقدسة على أنها منتج بشري تاريخي قابل للتعديل بل والإلغاء، وهي فكرة قديمة رُوّجت في الغرب نهاية العصور الوسطى على إثر تزايد نشاط حركات الإصلاح الديني وبدء تنامي النظرة العلمانية[٤].

«قراءات في القرآن: الوصية الفكرية الاخيرة» و«الإسلام بين الأمس والغد» و«الفكر الإسلامي: قراءة علمية» لمحمد أركون: ينطلق أركون من ملاحظة يعتبرها منهجية بخصوص التعامل السائد مع النص القرآني، فهو يرى أن المسلمين يستهلكون القرآن في حياتهم اليوميّة (يعملون بتعاليمه)، ولا يخضعونه للدراسة والتفحص العلمي الحديث، وأنه لا بد من اعتبار النص القرآني غنيًا ومنفتحًا على عدة احتمالات، أي إنه معروض للفكر الإنساني أن يتأمله ويفكر فيه دون انقطاع[٥]، وهذا عين ما تُدندن حوله طروحات علمنة النص من نزع القداسة عنه ومعاملته كمنتج بشريٍّ خاضعٍ لجميع أشكال النقد.

(١) المصدر السابق ص (٢٣).
(٢) الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، خليل عبد الكريم ص (١١)
(٣) إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، خليل عبد الكريم: ص (١٤٢-١٤٣).
(٤) الاتجاهات المنحرفة في التفسير في العصر الحديث، لعادل بن علي الشدي ص (٢٣٨).
(٥) الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، محمد أركون ص (٩٣).

أما بخصوص الجهاد فهو يقرر أنّه تم تقديم الجهاد على أساس أنّه نضال في سبيل الله، ولكنه في الواقع يمارس دوره طبقًا لمجريات معتادة للصراع الذي قد يندلع بين الفئات الاجتماعية.. فمجريات الجهاد وأساليبه كانت هي نفسها مجريات وأساليب الصراعات والحروب السابقة على الإسلام، فقد استُخدم مثلها: أسلوب الحصار ونصب الكمائن والقتل والأسر وأخذ الغنيمة. وكانت لها نفس غاياتها، أي التوصل إلى السلطة ثم التوسع وترسيخ الدولة.

وفي موضع آخر يقول أركون: «كان البابا يوحنا بولس الثاني قد أعلن قبل فترة قصيرة (في ١٢/٣/٢٠٠٠) توبة عامة عن جميع أعمال العنف التي ارتكبها بعض المسيحيين على مدار تاريخ الكنيسة الطويل، كما واعتذر عن أعمال الاضطهاد التي حصلت والانحراف عن مبادئ الإنجيل، إن هذه التوبة ذات مدلول لاهوتي عالي المستوى، وتتخذ أهمية كبرى في سياق ثقافتنا الحديثة التي تفكر في العنف من خلال مبادئ فلسفية ومعايير قانونية كانت تستعصي على التفكير بالنسبة لأجيال المؤمنين السابقين حتى انعقاد مجمع الفاتيكان الثاني على الأقل». يتضح من هذا النص ما يلي:[١]

- حرص المؤلف على نقد الجهاد واعتباره صراعًا على السلطة والغنائم، بينما يمدح الكنيسة والبابا، بشيء ثبت عنهم أنهم لم يفعلوه (التوبة).
- شمل النصارى تحت اصطلاح «المؤمنين السابقين» !

«الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة» لمحمد ديب شحرور: ويُعدّ هذا الكتاب نموذجًا صارخًا لعلمنة النص القرآني وسبك ما نادى به المستشرقون في قالب قرآني، ومن أبرز ماورد فيه:

أولًا: دعواه بوجوب إخضاع القرآن للتأويل، يقول محمد شحرور: «لا بدَّ أن يكون القرآن قابلًا للتأويل، وتأويلُه يجب أن يكون متحركًا وفق الأرضية العلمية لأمة ما في عصر ما، على الرغم من ثبات صيغته، وفي هذا يكمن إعجاز القرآن للناس جميعًا»[٢].

نلحظ في كلامه هذا الدعوة الصريحة إلى التأويل المتحرِّك لمعاني القرآن دون الوقوف عند ثبات صيغته ودلالاته تؤدي إلى إفراغ النص من مضمونه ليصبح منطلقًا للأهواء والأعراف والتقاليد، وهذا حقيقةً ما توصَّل إليه محمد شحرور حيث أثبت معاني جديدة متناقضة بشكل كلي مع ما تقتضيه صيغة النص ودلالته[٣].

> **يتبين للناظر أن أثر التحريف الذي جاء به المستشرقون لم يقتصر عليهم، بل تشربه عدد من مدعي العلم من بني جلدتنا، الذين بثوه في ثقافتنا المعاصرة، مما يحتم دراسة فكر كلا الفريقين، والوقوف على مصادر هذه الشبهات.**

ثانيًا: تقسيم الوحي إلى كتب، والزعم أن لكل كتاب منها مهمة خاصة به؛ اعتمادًا على نفي الترادف في اللغة العربية، وتفسير النصوص الشرعية والحوادث التاريخية على غير ما هي عليه، وصولًا إلى إخراج الكثير من الأحكام من دائرة التشريع لأنها لم ترد في القرآن، الذي هو جزء من الكتاب[٤].

«الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي» و«أوروبا والإسلام: صِدام الثقافة والحداثة» و«الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية» و«الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر» لهشام جعيط: ويبدو تأثُّر الكاتب الشديد بالفكر الاستشراقي؛ فهو يقتفي نظرية تيودور نولدكه التي اعتبر فيها أن النبي ﷺ إنما انطلق في دعوته من هاجس نفسي تخيَّل أنه وحيٌ من الله تعالى. كما اعتبر نولدكه أن الإسلام في جوهره دينٌ يقتفي آثار المسيحية أو بعبارة أخرى أن الإسلام هو الصيغة التي دخلت بها المسيحية إلى بلاد العرب كلها[٥]، حيث يقرر أن محمدًا ﷺ حَمَلَ طويلًا في وحدته ما تسلّمه من الغرباء وجعله

(١) الإنسان والقرآن وجهًا لوجه، حميدة النيفر ص (١٣٧).
(٢) الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة محمد شحرور ص (٦٠).
(٣) المصدر السابق ص (٥١-١٠٠).
(٤) الإنسان والقرآن وجهًا لوجه، حميدة النيفر ص (١٠٣-١٠٤).
(٥) ينظر: في السيرة النبوية، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، هشام جعيط ص (١٧٣).

يتفاعل وتفكيرَهُ ثم أعاد صياغته بحسب فكره، حتى أجبره أخيرًا الصوتُ الداخليُّ الحازمُ على أن يبرز لبني قومه. ومن هذا المنطلق يضع هشام جعيط تصورًا للإسلام أنه تأثر بدرجة كبيرة جدًا بالفكر المسيحي،[١] فيقول: «ومن دون المسيحية الشرقية لم يكن ليظهر محمد»[٢].

ويتضح مدى تأثره كذلك من خلال توضيحه لمنهجه في مشروعه في السيرة النبوية في النقاط التالية: حيث جرّد القرآن والنبي وكلَّ مقدس من قداسته، ليصبح معطىً قابلًا للتحليل والنقد، ويُقارن ببقية المصادر البشرية.

كما نزع الثقة من كل المصادر التاريخية ابتداء بالتشكيك في القرآن الكريم، ثم كتب التاريخ والسير والغزوات.

من نماذج كتاباته: تفسيره لكلمة (مجنون) و(به جنة): أفرد فصلًا كاملًا في كتابه: (الوحي والقرآن والنبوة) بعنوان: (النبوة والجنون) وتعرض في ثناياه لتفسير كلمة (مجنون) و(به جنة)، التي قالها مشركو قريش في معرض اتهاماتهم للنبي ﷺ، وعلل هذا الاتهام بأنه: «من مركز رفض في البداية تم توصيف النبي بعدة صفات كما يشهد على ذلك القرآن - مأخوذة عادة من ثقافتهم الخاصة»[٣]، ثم فسر الجنون في الاتهام فقال: «واضح أن «الجنون» في القرآن لا يعني الاختلاط العقلي وذهاب العقل والتميز، بل المقصود بذلك أن محمدًا مسكونٌ من الجِنة، أو له تابعٌ منهم ممتلِكٌ له يُملي عليه أقواله بصفة من الصفات»[٤].

ويقول: «كلمة «الجن» مأخوذة عن اللاتينية «جينيوس» التي كانت أصلًا تعني الإله، ثم تطور معناها في اللغات اللاتينية، لتعني القوة الإلهامية لدى الشاعر والفنان. وكانت كثير من الحضارات بل كلها تقريبًا ترى أن إجابات المتنبئين بالمستقبل إنما هي وحي إلهي، أو أن الشعر يأتي -تشبيها بذلك- عن إله ثم عن شيطان داخلي أو تابع ما خارج عن الإنسانية»[٥].

إلى أن يقول: «واختلال العقل بسبب المرض مفهومٌ بعيدٌ عن الثقافات القديمة، وبالتالي، فـ«الجنون» و«الجنة» بالمعنى القرآني أي القرشي، لا يعني فقدانَ العقل وقوى التمييز وحسِّ الواقع، لكن بناء علاقة مع من يكون الشخص مسيطَرًا عليه فيها أو مسيطِرًا. ولا يمكن الاعتماد على ما ذكرته سيرة ابن هشام من أن قومه عرضوا عليه أن يطلبوا له «الطب»[٦].

يتبين تعسُّفُ هشام جعيط في إرجاع كلمة (مجنون) و(به جنة) إلى أصل لاتيني بينما هي مشتقة من مادة عربية صِرفة.

لو سلمنا هشام جعيط بما قاله -وهو غير سليم- فما الفائدة من رفض أو قبول تفسير المفسرين السابقين المعني (به جنة) و(مجنون) بالجنون الذي يعني ذهاب العقل، فهل هذا سيؤثر في تأصيل ظاهرة الوحي! إلا أن يكون الهدف من هذا التنظير والتقصّي هو تأكيدُ شكٍّ مسبق في ألوهية القرآن، وهو مرتَكزٌ أساسيٌّ في تعاملِ هشام جعيط مع القرآن الكريم. إن ما يهمنا في هذا الاتهام هو أنه اتهامٌ قاله كفار قريش للهرب من التسليم لمحمد ﷺ بالنبوة والرسالة، فأنكرها الله تعالى عليهم وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، وقال: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]، وقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

وختامًا:

بهذا يتبين أن أثر التحريف الذي جاء به المستشرقون لم يقتصر عليهم، بل تشربه عدد من مدعي العلم من بني جلدتنا، الذين بثوه في ثقافتنا المعاصرة، وانتشر في بعض الأوساط، مما يحتم دراسة فكر كلا الفريقين، والوقوف على مصادر هذه الشبهات، مما يعين على التعامل معها ونقضها.

---

(١) المصدر السابق ص (١٦٤).
(٢) الاتجاهات المحرفة في التفسير في العصر الحديث، عادل الشدي ص (٣١٨).
(٣) في السيرة النبوية: الوحي والقرآن والنبوة لهشام جعيط: ص (٨٤).
(٤) المصدر السابق ص (٨٥).
(٥) المصدر السابق ص (٨٦).
(٦) المصدر السابق ص (٨٩-٩٠).

دعوة



من مآلات التفرق والتنازع: الفشل وذهاب الريح

أ. عاصم الحايك (*)

إذا كان ثمة خطر محدق يهدد وحدة الأمة المسلمة فهو خطر التفرق والتنازع؛ لأنه إذا فشت أوبئته فإنّ الثمن ستدفعه الأمة مِن رصيد قوتها وتماسكها وبقائها، كما أنه يهدّد سجل نجاحاتها بالإخفاق والضُمور المرحلي.

سنقتصر في هذا المقال على دراسة أحدِ أهمِّ مآلات التفرُّق والتنازُع، وذلك في ضوء الإطار الذي حدَّدته الآيات الواردة لمعالجة هذا الشأن في سورتي آل عمران والأنفال[1]، والذي يتمحور حول (الفشل وذهاب الريح):

لقد رسَم القرآن الكريم عوامل النصر، واختطَّ طريق الظَّفَر للفئة المؤمنة في معركتها مع الباطل، كما حذَّرها من أسباب الهزيمة، ونتائجها الوخيمة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥- ٤٦].

إنَّ إدراكَنا لتلك الحقيقة الشرعية الثابتة حول التنازع؛ وأن مآل أمره يؤدي إلى الفشل وذهاب الريح، يجعلنا نقفُ مليًا عند محطاتٍ تاريخية مفصلية؛ لنستلهم منها الدروس والعِبر؛ حيث يحكي لنا ابن كثير حال خصوم الإسلام واقتناصهم فُرص تفرُّق المسلمين لمحاولة الانقضاض عليهم، وكأنه يتحدث عن واقعنا المؤلم فيقول:

(*) باحث شرعي.

(١) أعني بذلك المواضع الثلاث التي تحدثت عن الفشل وذهاب الريح في سورتي آل عمران والأنفال، وهي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الأنفال:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]. ومعنى قوله تعالى: ﴿فتفشلوا﴾ أي: فتضعفوا وتجبنوا ، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: وتذهب قوتكم وبأسكم، فتضعفوا ويدخلكم الوهن والخلل. وللاستزادة ينظر: تفسير الطبري (٥٧٥/١٣).

«ثم دخلت سنة سبعين من الهجرة: فيها ثارت الروم واستجاشوا على مَن بالشام، واستضعفوهم لما يرون من الاختلاف الواقع بين بني مروان وابن الزبير»[(١)].

ولو قلّبنا صفحات التاريخ وتأملنا المرحلة التي أعقبت سقوط الخلافة العباسية، وأجرينا مقارنة بينها وبين أوضاع الساحة الإسلامية المعاصرة؛ لوجدنا أنّ ثمةَ تشابهًا نسبيًّا مِن حيث خصائص المرحلتين في جوانب التنازع والاختلاف، وقد دوّن مَنْ كتبَ عن أحداث هذه المرحلة الحرجة من حياة الأمة أنَّ: «بلاد الشرق: من أسباب تسليط الله التتر عليها، كثرةُ التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها»[(٢)].

وليس بالضرورة أن يكون التشابُه مُختزلًا في قدر الضعف والهوان والتسلط؛ وإنَّما في الكيفية ومن ثمّ في النتائج المشتركة، والتي عادة ما تكون ذات تكاليف باهظة الثمن، وقد تقرر أنّ التاريخ يعيد نفسه ولكن بصورٍ مُتعددة.

وقد شخّص شيخ الإسلام ابن تيمية الأسبابَ والنتائجَ لحالة الاختلاف والتنازع الحاصل في الأمة، فقال: «وهذا التفريق الذي حصل مِن الأمة -عُلمائها ومشايخها وأُمرائها وكُبرائها- هو الذي أوجب تسلّطَ الأعداء عليها، وذلك بتركهم العملَ بطاعة الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤].

فمتى ترك الناسُ بعضَ ما أمرَهم الله به وقعتْ بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرَّق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإنّ الجماعة رحمةٌ، والفرقة عذاب»[(٣)].

> **إن تفرُّق النخب الثقافية وتنازعها؛ يفتح الباب على مصراعيه لتسلط الأعداء وتمكنهم مِن الأمة، والاستيلاء على مفاصل حراكها بوجهٍ عام، وبقدر تنازُع هذه النخب واختلافها يكون تسلّط الأعداء والخصوم.**

وإنّ التنازع المرير، وحالة التشرذم التي تشهدها الساحة الإسلامية، تجعلنا نقف مليًّا لنتأمل الفوضى الثقافية والفكرية، والتي تُنبئ عن حالةٍ من الضعف والتشرذم، نتيجة انحراف البوصلة الثقافية كنتيجةٍ حتمية لأخطاء إحداثياتها العلمية والعملية.

وفي لفتةٍ ذات مدلولات تربوية جديرة بالتأمل يقول ابن عاشور ﷺ: «وإنَّما كان التنازُع مُفضيًا إلى الفشل؛ لأنَّه يثير التغاضُب، ويُزيل التعاون بين القوم، ويُحدث فيهم أن يتربَّص بعضُهم ببعض الدوائر، فَيَحْدُثُ في نفوسهم الاشتغال باتِّقَاء بعضهم بعضًا، وتوقّع عدم إِلْفَاءِ النصير عند مآزق القتال، فَيَصْرِفُ الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكن منهم العدو»[(٤)].

> **إنّ مِن طليعة خطوات الاتجاه الصحيح لبناء وحدة الصف المسلم، وتجنيب الأمة ويلات التسلط والهزيمة، هو إيجاد وتهيئة أجواءٍ مِن القبول النفسي للنقد الذاتي البنّاء لدى طلبة العلم والدعاة؛ لتدارس أسباب ومآلات التفرق والاختلاف ومن ثمّ تجنبها وتفعيل فقه الوفاق**

إن التلازم الحقيقي بين ذهاب الريح وتسلط الأعداء؛ يوضحه ما ورد في حديث ثوبان ﷺ من تداعي الأمم؛ ونزع هيبة المسلمين من صدور أعدائهم، فمتى ازدادت الحالة الغثائية لدى الأمة؛ ازدادت نسبةُ التسلّط والتداعي عليها؛ فقد أخرج أبو داوود في سننه من حديث ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يُوشِك الأمم أن تَداعى عليكم، كما تَداعى الأَكَلَةُ إلى قصْعَتها. فقال قائل: ومِن قلَّةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنَّكم غُثاء كغثاء السَّيل، ولينزعنَّ الله مِن صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهَن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوَهْن؟ قال: حبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت)[(٥)].

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٣١٣/٨).
(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٥٤/٢٢).
(٣) المرجع السابق (٤٢١/٣).
(٤) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (١٠/ ٣١).
(٥) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧).

وهذا لا يتأتّى إلا مِن خلال النظرة الواقعية للأحداث التاريخية التي تشابه وتحاكي واقعنا المعاصر في جوانب الضعف والهوان، وتشخيص الداء، دون تبرير للأخطاء، أو اتهامٍ للآخرين، عبر رؤية تتسم بالشفافية والوضوح.

إننا مطالبون بأن نبدأ بالإصلاح مِن الداخل، وهو الإصلاح المنهجي الصحيح الذي اختطّه القرآن الكريم منهجًا واضح المعالم، صريح العبارة، قوي اللهجة، في تقرير لمنهجية النقد الذاتي البنّاء للمؤمنين الصادقين وهم يتساءلون عن مصابهم الجلل في غزوة أحد حيث قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فيأتي الردُّ الصريح دون مواربة أو مجاملة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

قال مجاهد: «وذهبت ريحُ أصحابِ محمدٍ حين نازعوهُ يوم أحد»[١].

وفي غزوة حنين قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

إنَّها التربية بالأحداث والتي ربَّى القرآن الكريم الرعيل الأول عليها، ليسير على خطاها المؤمنون الصادقون، والمربون المخلصون، لاستلهام تجارب الأمة ومعرفة أسباب هزيمتها أمام الأعداء.

والتي ما إن يجفَّ حبرُها حتى تعودَ الصراعات مرة أخرى، وعندما نخسر المعركة نرمي بفشلنا وذهاب ريحنا على المؤامرات الخارجية فقط، ونتناسى النقد الذاتي والأسباب الحقيقية لخسارة المعركة.

> **إن النصرَ لا يتأتّى إلا عبر قنطرة الوحدة الصادقة، والائتلاف الصحيح، وليس عبر مبادرات شكلية، وكيانات جبهوية اجتمعت فيها الأجساد، وافترقت القلوب، وليس لها مِن رصيد الوحدة سوى البيانات تلو البيانات**

> **إنَّ تجاربَ العمل المؤسّسي ذي الأطياف المتعددة تُؤكِّد وتُرسِّخ أنّ رصّ الصفوف ووحدة الكلمة إنَّما يبدأ حراكه العملي مِن طلبة العلم والدعاة، كما أنَّ سبيل التفرق والاختلاف يبدأ مِن الكلمة واللسان، ومِن ثمّ إلى السِّنان!**

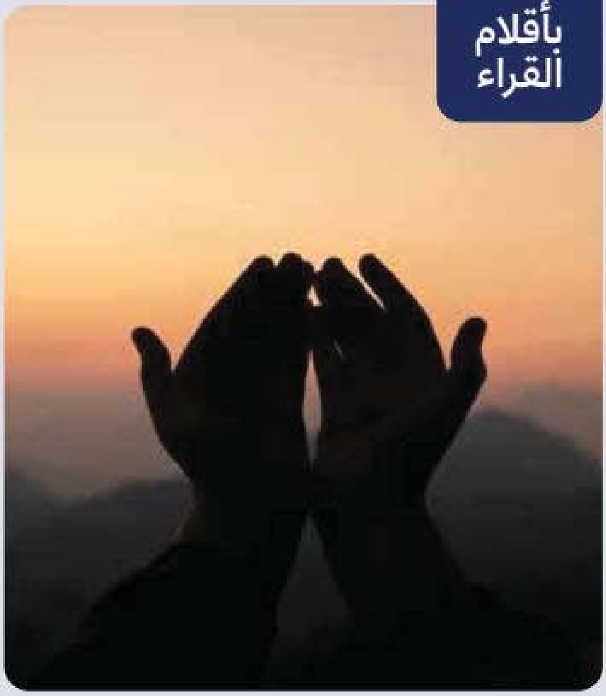
وتأمل أخي الكريم كيف عالج النبيُّ ﷺ إحدى القضايا الخلافية العلمية، وذلك من خلال اتِّباع أسلوب التوجيه المباشر، والتنبيه بأخذ العِبرة ممن قبلنا، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعتُ رجلًا قرأ آية، وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها، فجئتُ به النبيَّ ﷺ فأخبرتُه، فعرفتُ في وجهه الكراهية، وقال: (كِلاكُما مُحسن، ولا تختلفوا؛ فإنَّ من كانَ قبلَكم اختلفوا فَهَلكُوا)[٢].

وهذا بدوره يجعل المسؤولية المنوطة بطلبة العلم والدعاة في جمع الكلمة ووحدة الصف في موقع محوري بارز، فهم القدوات العملية للأمة، وقد شرّفهم الله تعالى بحمل همّ هذا الدين، وأناط بهم مسؤولية الدعوة إلى الله تعالى، وإنَّ واجبهم الديني والأخلاقي يُحتّم عليهم أن يكونوا مصلحين بين أطياف المجتمع، موحدين لشتاته، مقربين لوجهات النظر فيه، كما أنَّ مِن واجباتهم الدعوية أن يسعوا إلى تسكين الثائرة، وألا يكونوا طرفًا سلبيًا في الخلافات الدعوية، ولا وقودًا في إذكاء نارها، أو طرفًا في النقاشات الجدلية التي تشغلهم عن دورهم الذي تنتظره الأمة منهم.

فرُبَّ كلمةٍ أو تغريدةٍ صَدَق قائلها مع الله؛ فصدقه الله، فجمع الله به الصفوف، وألفَ به بين القلوب، وكم من كلمة أو تغريدةٍ قالت لصاحبها: دعني دعني!

وكما أوصى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «الاختلاف حالِقةُ الدين، وفَسَادُ ذات البَيْن، وإياكم والخصُومات؛ فإنها تحبط الأعمال، والاختلاف يدعو إلى الفتنة؛ والفتنة تدعو إلى النار ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]»[٣].

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨/ ٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٦).
(٣) أخرجه الهروي في ذم الكلام وأهله (٤/ ٢٤٧، برقم ٧١٠).



أمَّن يُجيب المضطر إذا دعاه

د. علي الكيلاني

في سياق أدلة الثناء على الخالق جل جلاله وحمده وتنزيهه، تأتي آيةٌ تفتح باب الرجاء والأمل أمامَ كلِّ مهموم ومكروب، تشرح الصدر بالطمأنينة بوعد الله وفرجه، وتنتشل المرء من شِباك اليأس والقنوط، فتتوجّه الأكف إلى خالقها، وتقرع الأسماع والقلوب فتحييها، قال تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [النمل: ٦٢].

قال السعدي ﷺ: «هل يُجيب المضطرَّ الذي أقلقته الكُروب وتعسَّر عليه المطلوب واضطر للخلاص ممّا هو فيه إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء؛ أي: البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده؟».

الناظر يمنةً ويسرةً يجدُ أصنافًا من المضطرين وألوانًا من المبتلَين؛ تُغلق دونهم الأبواب ويتعسَّر المراد وتحيط بهم الخطوب وتشتد والكروب فلا يكشفها إلا الذي يجيب المضطر إذا دعاه، السامع لكل شكوى الدافع لكل بلوى... وما من كربة إلا والله فارجها.

يا صاحب الهم إن الهم منفرج
أبشر بخيرٍ فإنَّ الفارج الله

فارفع أكفَّ الضراعة واسأل ربك كشف الضُّر، وانتظر إجابة دعاءٍ قريبة، فما بينك وبينها إلا حسن مسألة وطاعة.

كتاب الله .. خير مُعتنى

أ. عبد الله بن صالح صدّيق

كتاب الله خير الكتب، وهو نواةٌ لكثير من الأعمال الجالبة للنفع والأجر العظيم قديمًا وحديثًا، فهذه الدار عملت على طباعته مع فهارس تصنِّف مواضيعه لتسهُل مدارسته والبحث فيه، وتلك الجمعية قامت بالتعاقد مع بعض المصنِّعين لتصميم أجهزة لتعليم الأطفال قصار السور، وذاك المبرمج صاغه تطبيقًا حاسوبيًا يعين الناس على تلاوته يوميًا، وآخر يتعهد نشر صفحات منه عبر الشبكة، وكل منهم تلقّف الناس صنيعه بالشكر والعرفان ونالوا بسببه الأجر العظيم، وما زال هذا الباب من الخير العظيم واسعًا لمن أراد؛ كتقديم نسخ للمكفوفين يستطيعون استخدامها بسهولة، أو العمل على إصدار ترجمات بلغات جديدة، أو غير ذلك من أفكارٍ وتقنياتٍ في هذا العصر المتسارعة أحداثُه، وما تزال أبواب التقنية مفتوحةً لكل جديدٍ يخدمُ كتابَ الله تعالى وقرّاءه.

كل أولئك نرجو لهم الخيرية فرسول الله ﷺ يقول: (خَيركم مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّمه) أخرجه البخاري (٥٠٢٧)، وبكلِّ حرفٍ يتلى حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، والدالُّ على الخير كفاعله. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢].



احتلال هشّ!

م. جهاد بوابيجي

دخلت في يوم عملي الأول إلى المبنى ذي الطوابق العالية، وولجت إلى الشركة التي أعمل بها حيث الفخامة والعلامة التجارية الراقية وحيث الجميع يرتدي ملابس (أنيقة) في تلك المنظومة العابرة للقارات، كنت مبهورًا بما أراه وحريصًا جدًا على أن أصبح كما تريد مني الشركة، كان القدر الذي تعلمته هائلًا وفي حد ذاته مخيفًا.

تعلمتُ الكثير من المعارف الجديدة، والأنظمة الحديثة، وآخر ما توصلتْ إليه علوم الإدارة.

تعلمتُ أن هذه المجتمعات فيها الكثير من الفساد، والكراهية، والتنافس غير الشريف، واستعباد الموظفين، ومع ذلك فإنه يجب أن أتعامل مع ذلك بمهارة وأتجاوزه، وأن أحصل على أكبر قدر ممكن من المعرفة والخبرة محددًا هدفي ساعيًا نحوه دون الالتفات لتلك الأمور.

تعلمتُ كيف يُسلب المرء عقله بالمظاهر البراقة فيخدع العملاء، حكومات وشركات.

تعلمتُ أننا مخدوعون بالعلامات التجارية الغربية التي تحتل عقولنا وبلادنا وأموالنا وأكثر من ذلك (معلوماتنا) التي تعيد بيعها لنا، في الوقت نفسه الذي نحن قادرون فيه على إيجاد بديل عنهم من أنفسنا... فهل من مبادر؟





فالله خيرٌ حافظًا

م. معاوية بن مروان الجندي

في ظل الحجر المنزلي الذي اضطررنا إليه أتساءل: هل وباء كورونا هو أخطر ما نواجهه في حياتنا اليومية؟

تفكّرتُ بالقدر الكبير من أسباب الإصابات الممكنة في المنزل وخارجه؛ والتي تتفاوت من الكدمات والجروح اليسيرة مرورًا بالكسور وانتهاءً بالعجز والوفاة. فالتفكير في الأدوات الحادة مع فضول الأطفال ورغبتهم بتقليدنا أو مساعدتنا يُعطينا مشهدًا مرعبًا، كذلك استخدام الأدوات الكهربائية يوصلنا للنتيجة المخيفة نفسها، ناهيك عن الانزلاقات والارتطامات "العادية"، أما الأخطار خارج المنزل فهي كثيرةٌ معروفة، وفي كلا المكانين نتعرّض للجراثيم وما شابهها طيلة الوقت. نحن أمام نمط التفكير "شديد الحرص على السلامة" نبقى في حالة مستمرّة من القلق، وهي مع المخاوف الموجودة أصلًا من الإصابة بالأوبئة توصلنا لحالة إرهاقٍ بدنيٍّ ونفسيٍّ يُشعرنا بالعجز.

لا يملكُ الإنسان للخروج من هذه الحالة سوى أن يتذكر قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وأن يوازن بين الحرص على السلامة الذي يقعدنا عن بعض مصالحنا، وبين السعي دون احتراز، فنبذل الأسباب ونتوكّل على الله الحافظ، فهو مقدِّر الأقدار سبحانه وتعالى.

أقد فرغت؟

د. خير الله طالب

لما انتدبت قريش عتبة بن ربيعة ليعرض المال والملك والطب على النبي ﷺ ليترك دعوته، لم يقاطعه ولم يُسكته أثناء كلامه على الرغم من صعوبة الاستماع لهذا العرض، فلمّا سكتَ سأله: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ ثم قرأ عليه سورة فُصّلت، فاستمع إليها حتى أثّرت فيه وجعلته يرجع لقومه عارضًا عليهم أن يتركوا محاربة الدعوة ويتربّصوا انتصارها[١].

أحيانًا لا تجد أشقَّ على بعض المصلحين والمربين من الصمت والاستماع للسائل أو المستشير؛ لشعور بعضهم بعدم الحاجة إلى الاستماع إلى ما يَعرف، أو أنَّه قد أحاط بالسؤال أو المشكلة، وربما لكثرة الانشغال وضيق الوقت.

لكنَّ من أتقن الاستماع منهم جيدًا يعلم أنَّ إنصاته أكثرُ تأثيرًا، واختصارًا للجهد والوقت؛ لأنَّ السائلَ أو المستشير في كثير من الأحيان يُريد من يستمع إليه ويهتمُّ به ويُطمئنه أكثر ممن يجيب عن سؤاله، فإذا فرغ من كلامه سيكون أكثر استعدادًا لسماع النصيحة، شعورًا منه بأنه قد أفرغ ما في جُعبته من كلامٍ وتفاصيل.

كما أنَّ الاستماعَ للسائل أو المستشير يمكّن من فهم الواقع بدقّةٍ، ويعين على معرفةِ كامل احتياج المتكلّم والمستشير، ومن ثم تكون الإجابة أقربَ إلى ملامسة الحلِّ الملائم له، والتي كثيرًا ما تختلف من شخصٍ لآخر وإن تشابهت في بعض تفاصيلها مع غيرها.

ليس الأمر بالسهل، ويحتاج لدُربةٍ ومراس، خاصةً إن علِمَ المستشارُ والمسؤول أنَّ الاستماع هو أقصر طريق إلى قلوب وعقول المستشيرين، والوقت هو هو، إما أن يُقضى في مجادلتهم وعودتهم إليه مرارًا أو إلى غيره لاحقًا إذا شعروا أنه ما زال لديهم ما يقولونه، أو أن يُستوعب كل ما لديهم من المرة الأولى فيأخذ الجواب مكانه بهدوء وطمأنينة.

الاستماع لا يتحقق إلا بالإنصات الحقيقي للكلام والمشاعر والدوافع، فهو ليس مجرّد التوقف عن الكلام فحسب، وإنما التوقف عن التفكير في الجواب حتى يفرغ الطرف الآخر من كلامه، وهنا قد يحتاج المستمع أن يصمت برهة ليرتّب أفكارَه، كعادة أهل العلم الراسخين.

لهذا يزول العجب ممن يعالجون المشكلات بالاستماع أكثر من الكلام. مشتكيةٌ تقول لمستشارٍ استمعَ لمشكلتها: يُمكنكَ إنهاءُ المكالمة دون إجابتي؛ لأنَّك أولُ مستشارٍ يستمع إلى كلامي إلى النهاية دون مقاطعة.

والشيطان يدخل عن طريق الكلام أكثر مما يدخل عن طريق الصمت، أما دخوله عن طريق الكلام والجدل فكثيرٌ وظاهرٌ في الشرع والواقع. بل ربما دخل من طريق مقاطعة المتحدِّث ولو كان المقاطع على حقٍّ. وكم أفسدت المقاطعاتُ من مجالس، وضيعت من فوائد، فأوغرت الصدور، ومزّقت العلاقات، وأتلفت الأفكار، وأهدَرت الخبرات.

في جلسة صلح لم يستطع الحاضرون ضبط المقاطعات، فضاع مقصودها بعد أن تحقق جزء منه في أولها بحسن الاستماع.

وفي نقاش تخطيطي ازدحمت الأصوات طويلًا، وكان كلُّ ذي رأيٍ يُثبت رأيه دون فهم رأي صاحبه، فصار الأمر إلى حَسم المسألة بعد أسبوع، فلما جاء الموعد وإذ بالقرار قد نضج بالتوافق بعد تأمُّل كل طرف في رأي صاحبه بهدوء.

الاستماع: إصغاء للمشاعر، فهم للدوافع، تهدئة للنفوس، وتسكين للثائرة، وتبريد لأرضية الحوار أو النقاش، يختصر المراحل، ويكسب مزيدًا من الأنصار والمؤيدين؛ لذا قد يكون هو بداية الطريق لاجتماع الكلمة؛ فلا اجتماع للكلمة قبل اجتماع قلوب القائمين على الشأن العام، ولا اجتماع لها دون اجتماع عقولهم، ولا سبيل إلى الأمرين دون الاستماع العميق دون مقاطعة، ودون استعجال للإقناع، فما أسهل التوافق عند وجود الفهم المشترك الذي يغذي الثقة المتبادلة.

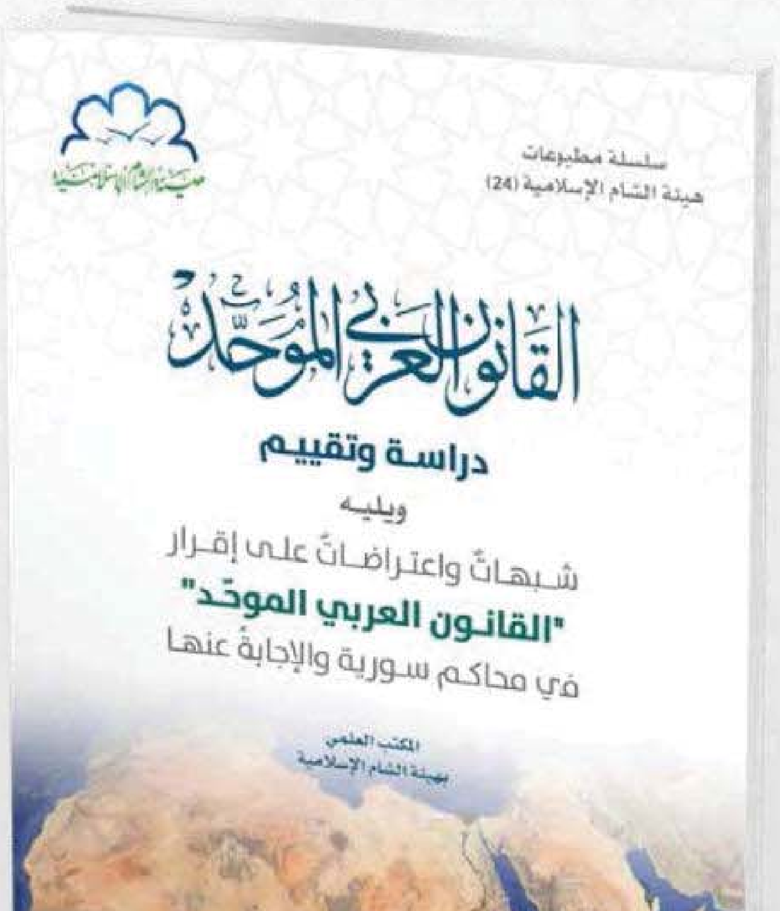
وكم هي حكيمة تلك المقولة: (إذا جاءك المهموم.. أنصت). ولنا في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة.



(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١/٢٩٤).

هيئة الشام الإسلامية

من إصداراتنا في السياسة الشرعية



دراسة عن "القانون العربي الموحد" الذي أصدرته جامعة الدول العربية من خلال لجانٍ شرعية وقانونية مُختصَّة، تتضمن تقييم مواد القانون، وتوصيات بشأن تطبيقه والتعامل به في محاكم المناطق المحررة في سورية، مع إجابة عن أهم الشبهات والاعتراضات التي أثيرت عليه

أكاديمية
تأصيل الوعي

تعلن هيئة الشام الإسلامية عن إطلاق

أكاديمية تأصيل الوعي

وبدء التسجيل في دبلوم

فقه الخلاف والحوار والعمل المشترك

